

مجلس كتابات الشبان العرب

قطاع الثقافة



الولد الشقي في السجن

محمود السعدني



0

Bibliotheca Alexandrina

6005804

الولد الشقي في السجن

محمود السعدني

■ رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعدة

دار اخبار اليوم قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة
القاهرة

تليفون/ فاكس
٥٧٩.٩٣٠

تصميم الغلاف : أشرف حسين

الرسوم الداخلية : أسامة نجيب

الولد الشقي في السجن



الفصل الأول

أبو سداح

القتل صفة حيوانية ، نقلها الانسان عن الحيوان ، والحروب نوع من القتل الجماعي ، وهو وقف على الانسان ، ولكن براءة الاختراع تبقى من حق الوحش . كل ما أضافه الانسان ، انه نظم عملية القتل ، جعل منها قانونا . ونظاما . ووزع الرتب والنياشين ، وجعل من القاتل بطلا ، ومن المقتول شهيدا ، ولكن يبقى الوحش بعد ذلك ، أكثر انسانية من الانسان ، اذا قورن فعل الوحش بفعل الانسان الذى اخترع احقر وابشع اداة للتعذيب وهى السجن !

هل رأيتم قبل الآن ، اسدا يجلس اسدا ويقيم هو خارج العرين ، يأكل ويشرب ويتمطى ويتجول فى الغابة ؟

هل رأيتم اسدا يجلس فيلا أو نمرا أو حتى غزالا ؟

الاسد يصفى حساباته بسرعة ، يمزق فريسته اربا ويرميها بعد دقائق ، ولكن الانسان ، اخترع زنزانة ، وحول السور حراس ، وهى عملية قتل

للمسجون على مراحل ، انها الموت نفسه ولكن بالتقسيت المريح !
ولكن أحقر ما فى السجن هو السجن الانفرادى غير ان الذين جربوا
السجون مع الاخرين ، يكتشفون بعد فترة ان للسجن الانفرادى ميزة .
ولأنه ميزة ، فهو وقف على المسجونين فى قضايا رأى . أو قضايا قتل ، أو
آية قضايا اخرى ، شرط ان يكونوا من الاثرياء المثلثين !
ولقد سجن عدة مرات . ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن
الحقيقى . . الا فى المرة الأخيرة ففى المرات السابقة ، كنت واحدا من
الوف رجال الصحافة والاعلام ، والمشتغلين بالرأى وأمور السياسة . ولم
أعرف رغم محاولاتي الكثيرة على مسجون واحد من هذا الصنف الذى
اعتاد الاجرام وأصبح التردد على السجن بعض مشاكله ، وبعض
هواياته !

ولكن فى سجنى الاخير ، قدر لى أن أتعرف على عالم ، كنت أذهب الى
قبرى حزينا لو مت دون أن أراه . عالم النشالين والقوادين واللصوص ،
حالة القاهرة يضمها سجن واحد !

فى يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧١ ، حملتني سيارة مع بعض المحكوم عليهم
الى سجن القناطر ، وهو سجن أكثر قسوة من سجن الباستيل ، لانه
خداع . مظهره من الخارج يوحي بأنه مكان شاعرى ، يصلح لتجول
العشاق والمحين ، فأشجار السرو العالية تحفبه عن العيون ، وأشجار
الجميز العتيقة تحف به من كل جانب ، والرياح المنوفى يتهدى تحت أقدامه
معشوشبا مخصوصا منحدرنا نحو الشمال .

ولكن الذى يلج البوابة الخارجية ، سيحد نفسه فجأة فى مكان أشبه
بمعسكرات الاعتقال . اسوار غليظة تعزل السجن عن العالم ، وأبراج
حراسة مزودة بالكشافات ، والحراس مزودين بالمدافع الرشاشة . وفى فناء
السجن يتجول الحراس وقد نزع النظام الصارم المفروض على السجن
قلوبهم من صدورهم وتسليحوا بالعصى الغليظة ، والسيات . ومع الحراس
تتحول عشرات من الفئران الضخمة التى تفر القطط من أمامها وتفسح لها
الطريق ، وتضرب لها تعظيم سلام . وهى تقرض كل شئ . خشب
المكاتب والمقاعد وأبواب الزنازين ، وتتحول فى النهاية الى طعام يشارك فى
حل أزمة اللحوم فى داخل السجن . فالمسجونون القدماء ينصبون
المخاخ . . لصيدها وشيها على النار . . وأكلها .

ويقسم الذين شاركوا في وجبة الفئران هذه انها الذ ألف مرة من اللحوم التي تقدمها ادارة السجن .

وبالرغم من اننى لم اذق طعم الفئران ، الا اننى استطيع - وانا مرتاح الضمير- ان اقسام معهم . فهذا الشيء الذى تجلبه الادارة تحت اسم لحم . . لايمكن ان يكون لحما ، الا اذا كان وارد المقابر . والافدلون على لحم يباع فى أى مكان على أرض مصر ثمنه ثلاثون قرشا مصريا للكيلو الواحد ، فى الوقت الذى يباع فيه خارج السور بجنيه ونصف . أما الطبخ فهو مزيج من أعشاب وتراب وطين وأشياء اخرى لا داعى لذكرها . امد الحراس فهم بقايا العهد الانجليزى الملكى عندما كانت السجون تتبع الخاصة الملكية ، وكانت الاشغال الشاقة هى العمل فى مزارع الملك . وحتى الاصلاحات التى قامت بها الثورة لم تلق ترحيبا من جانب هؤلاء الحراس . ولقد قاوموا فى البداية ثم استسلموا مقهورين . ولقد نفخ احدهم فى وجهى ذات صباح وهو يثنى شكواه من الحال السيء التى آلت اليه السجون بعد الثورة :

- هيه دى سجون ، دى جنائن ، زمان كان الخير كثير ، وكانت السجون سجون ، وحية سيدى المذبوبى . العسكرى منا كان يقتل المسجون ويدفنه ولا من درى ولا من شاف !

ولكن بعد فترة اكتشفت ان هؤلاء الحراس ليسوا بهذه الدرجة من الاهمية التى يدعونها احيانا ، وانهم اكثر غلبا من المساجين أنفسهم ، وأكثر منهم تعاسة . وأن الحل والربط فى يد عتاة المجرمين داخل السجن . هم الذين يسيطرون على السجن ويديرون الامور فيه على هواهم . وفى استطاعة أى مسجون عادى ومستعد لدفع الاتعاب أن يمزق أوراقه داخل السجن . . وفى استطاعته أيضا أن يخرج أفراسا قبل الموعد . بل وفى استطاعة أى مسجون ثرى لايرغب فى تحدى القانون ، وفى الوقت ذاته يريد أن يعيش حياته . . أن يصنع مايحلو له داخل السجن وخارجه فهو ينام مرة كل اسبوع مثلا فى بيته . وهو يعيش داخل السجن بشكل أفضل من العيشة التى يجيهاها مدير السجن فى الخارج . وبعض تجار المحدثات الذين يقصون مدة العقوبة يستخدمون داخل السجن اكثر من حادم . وبعضهم يقضى المدة كلها داخل مستشفى السجن ، حيث يقضى الليل كله فى لعب الورق وتدخين الحشيش ، ويقضى نهاره نائما يحلم احلاما

لذيذة ، اما طعام هؤلاء فهو وارد الخارج دائما وسجائره من صنف امريكى ممتاز . . وثيابه من أفخر الاقمشة وان كان لها شكل ملابس السجن . واكتشفت ايضا انه لولا اكراميات هؤلاء المساجين الاثرياء لمات بعض الحراس جوعا . وتستطيع ان تحل مشاكلك كلها اذا لجأت الى العصا ، وتضيع تماما اذا لجأت الى الادارة ، وكل شئ له عند العصا ثمن . العيشة الطيبة لها ثمن ، الخروج من السجن له ثمن ، السهر خارج الزنازة له ثمن ، وحتى قتل احد اعدائك داخل السجن له ثمن ، ولكن حذار ان تتعامل مع العصا ، ثم تتوقف ، وحذار ان تعد ثم تخلف ، وحذار ان تحدد لهم ثمننا ثم تدفع اقل ، فهؤلاء المجرمون ، قطاع طرق ، قتلة بنى ادم ، مصاصو دماء البشر ، الى اخر هذه الاوصاف والالقب والنعوت ، لا يستخدمون فى المعاملة ايصالات او شيكات . . ولكن تكفيهم كلمة شرف !

أغرب شئ ان الواحد فيهم اذا وعد وعدا فهو على استعداد لان يفقد روحه فى سبيل تنفيذه . وهم جميعا ، والقتلة منهم خصوصا ، يتصرفون كأنبيل فرسان العصور الوسطى !

ولقد وعدنى احدهم مرة بشراء لحوم من الخارج ، ونجح فى جلبها داخل السجن ، ولكنه أثناء قطعه للفناء فى طريقه الى العنبر ، فوجئ بموكب تفتيش على رأسه وكيل مصلحة السجون ومدير السجن وكل هيئة الضباط ، ولما كان الشئ الذى يحمله بدوى - هذا اسمه - يبدو مريبا ، فقد فتشوه وصادروا اللحم ثم أرسلوه الى التأديب ليقتضى فيه اسبوعا . ولكن بدوى سعى بعد ذلك حتى حصل على كمية اللحم المطلوب ومن نفس الصنف ، ورفض ان يتقاضى مليا ، لأنه كان قد تقاضى ثمن اللحم المصادر ، قيم ربما اختفت فى الحياة خارج الاسوار ، ولكنهم داخل الاسوار ما زالوا يحافظون عليها !

واكتشفت ايضا أن السجن جزء من الحياة ، ومايجرى خارج الاسوار ، يجرى مثله وبالضبط فى السجن . واذا كان خارج السجن أثرياء يموتون من التخمّة ، وفقراء يموتون من الغم ، واذا كان فى الخارج اصحاب نفوذ واصحاب عيا ، واذا كان هناك ابناء اكرمين وابناء كلب . . واذا كان هناك تسبب وسرقة ونهب ونصب ، واذا كان هناك فساد واشياء لاترضى الرب ولا ترضى العبد ! ففى السجن ايضا تدور هذه الاشياء بالتمام

والكمال وبتكريز أشد ، مع فارق بسيط ، هو ان نزلاء السجن أصديق وأشرف .

ففى الخارج يرفع النصاب عادة شعار الشرف ، ويرتدى الجبان زى الشجاعة ، ويتغنى البخيل بالكرم . ويتشج السافل بمكارم الاخلاق ، ولكن فى السجن ، كل شىء ظاهر ومكشوف وعلى عيك ياتاجر ! وهم عندما ينادون الاخرين ، ينادونهم بأسمائهم وصفاتهم دون تزويق ولا رتوش ، فاروق النصاب ، واسماعيل القواد ، وسيد الحرامى وابراهيم مخدرات !

وهأنذا الآن ، وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية ، وبعد ان ذقت جميع انواع الصفعات والشلالات ، ومارست الاشغال الشاقة فى صحراء الواحات ، استطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير ، ان السجن ليس زادعا وليس وسيلة للعقاب . لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة ، ولكن هاهو السجن قائم ، والجريمة موجودة ، يسيران معا ، جنباً الى جنب . . ولا يلتقيان ، كأنهما شريط سكة حديد ، يكملان بعضهما ولايتعارضان .

واعتقد ان الانسان لابد أن يسعى لاختراع بديل اخر ، اذا أراد أن يقضى على المجرمين . . والاجرام !

وشىء آخر . نزلاء السجون فى بلد كمصر ، هم هم لا يتغيرون ، دليل ان المجتمع ثابت لا يتحرك ، والاضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شىء بقطع الشطرنج . . احصنة وبعضهم عساكر ولاسبيل الى تبادل المراكز ، أو تغيير الادوار .

ثم شىء آخر . . وأخير . . لقد كان القصد من بناء السجن ، كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى البوابات ، وعلى الاسوار « السجن ، تأديب ، وتهذيب ، واصلاح » ولكن يبدو ان الاعمال ليست بالتينات فى مصلحة السجون ، لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم ، وتعذيب ، وافساد .

على أية حال ، لقد ترددت على السجون ثلاث مرات . وعندما استقبلنى عم عبدالقادر شاويش سجن القناطر اخر مرة ، صاح فى وجهى بانفعال صادق . . « ايه ده ياايه ، انت جت تانى ، انتوبقيتوا عاملين زى الحرامية ، ساعات بيخرجوا ، لكن دائما بيرجعوا تانى » !

ولست نادما الآن على شيء مما حدث . ولا أذكر من تلك الأيام الا الاشياء الجميلة ، والذكريات الحلوة ؟ اما الاساءة والاهانة فقد تركتها مع ملابس السجن عند الباب . ولقد حضرت عدة شخصيات في نفسي - التقيت بها ذات يوم في سجن القناطر - قتله ولصوص وقطاع طرق ونشالين ومتشردين ، حسنى اوسداح ، وفتحى الشراوى ، وعاشور ، ويدوى ، ومصطفى الكرداسى ، وسيد السورى ، وعلى ابوالغيط ، كل منهم يصلح فصلا ، وكل منهم له حكاية ، وكل منهم ، لو لدينا حركة فنية حقيقية لصار فيلما يكسب الاوسكار !

وسأحاول قدر الطاقة ان اكتب ماوعت الذاكرة عن كل منهم . وان اقدم ما احتفظت به النفس من ملامح لنفسيات هؤلاء الرجال الذين حكمت عليهم الظروف ان يقضوا العمر في زنازين ضيقة خلف اسوار عالية ، ومع حراس أغلب الطن انهم سيحشرون يوم القيامة في زمرة الحمير ! .

وتسألنى ، وماذا استفدت من السجن ؟ وأقوال لاشيء . . فالسجن ليس تجربة مفيدة ، لان التجربة الحقيقية في الخارج ، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة ، والاختبارات متعددة ، ولكن السجن ، يوم واحد ، ممل ، ومكرر وكثيب ، غير اننى استطيع ان اقول أيضا ، ان تجربة السجن مفيدة ، وضرورية ، بشرط أن تحدث مرة واحدة ، ولفترة قصيرة ! بقى ان أقول ، اننى دخلت السجن ثلاث مرات ولأسباب سياسية ، وفي ظل نظام واحد ، ولثلاثة اسباب تختلف ، أو من أجل ثلاثة مواقف متعارضة .

في المرة الاولى ، في فحر شبلى سجب ، لانى صد الحكومة ، في المرة الثانية سجننت لانى - مثل طبعة - على الحياد . لامع الحكومة ولا ضد الحكومة ! في المرة الاحيرة سجننت لانى مع الحكومة ؟ كالموت يدرككم أينما تكونوا ، كالخزف ويل له ان وقع على الصخر ، وويل له ان وقع الصخر عليه .

وكان اول من عرفته هو حسنى اوسداح ، وهو مجرم عريق مارس كل أنواع الاجرام ، بدأ بشالا ثم مشاغبا ثم رئيسا لعصابة تحطف الاطفال ، ثم تاجر مخدرات ، ثم أصبح السجن شغله المحترار والاحرام صفته ووظيفته . وهو طاف بكل السجون والليمانات . من ليهان طره الرهب الى

ليمان ابو زعل ، حيث الخارج مولود والداخل مفقود . وعندما فتح باب
زرناتى والقى نظرة حاطمة على الوافد الجديد ، كان قد انقضى عليه وراء
أسوار السجن ثلاثون عاما بالتهام والكمال .

كان حسنى ابوسداح مغضى الوجه ، بارز الوجنت ، عيناه باهتان
ساكتان محدقتان فى لاشيء كاهما عينا سمكة ميتة ! وعندما خطا خطواته
الاولى داخل السجن ، كانت الحرب العالمية الثانية على اشدها والمعارك
الطاحنة تأكل زهرة شباب العالم ، والنار مشتعلة فى جوانب العالم
الأربعة . ثم انتهت الحرب العالمية ، ونشبت حرب فلسطين ، ثم
احترقت القاهرة . ثم قامت الثورة ، وخرج الملك فاروق مطرودا ، وجاء
محمد نجيب ، ثم خرج محمد نجيب وجاء عبدالناصر ، وحدث عدوان
١٩٥٦ ، وقامت الوحدة ، وفشلت الوحدة ، ودارت الحرب فى اليمن ،
ثم جاء عدوان ١٩٦٧ ، ثم جاءت حرب الاستنزاف ، ثم سكنت المدافع
فترة ، ورحل جمال عبدالناصر وجاء أنور السادات . كل هذا حدث ،
وحسنى ابوسداح فى السجن لا يدري شيئا عما يدور خارج الاسوار .
الحكومة عنده هى مأمور السجن ، والشعب هم النزلاء ، ولكن
حكومة مصر التى خارج السور ، فعلمها عند ربى ، وسأتى يوم تأتى فيه
الحكومة هنا فى السجن ، هكذا حدث من قبل ، وحدث اكثر من مرة ،
وهو لا يعرف السبب ولا يدرك الحكمة ، ولكن هكذا حدث وهكذا
يحدث . .

- ومفيش حد يا استاذ أحسن من حد ، احمد زى الحاج احمد ، وكل شويه
بيجيئوا حكومة يسجنوها هنا .

- تصدق بالله ، ان وزير الداخلية اللى فات كان مسجون معايا هنا ،
وكان بيحشش معايا ، راجل اخر مزاج . هكذا بدأ حسنى ابوسداح
حديثه معى ، عندما عرف اننى مسجون سياسى وان تهمنى هى محاولة قلب
نظام الحكم .

- أهو انت من غير مؤاخذه غشيم ، لو انا مطرحك كنت قلبته ، وعلى
كل ، مايمكش ، مفيش حاجة بتفضل على حالها ، كل شيء ينقلب .
حكمة يااستاذ !

عصير الحكمة التى وصل اليها ابوسداح انه لاشيء يبقى ، ولا دوام
لاى شيء . كل شيء يقوم ومعه عوامل فنائه . وكل شيء الى زوال ، ولو
دامت لغريك ماوصلت اليك .

- تصدق بالله ، كان فيه واد ضابط في سجن طره عامل قمع قوى . وكان موقف السجن على رجله . انتقل م السجن وفات شهرين وبصينا لقيناها داخل علينا ، مسجون زينا .

ويصمت أبوسداح صمنا بليغا ، ويلقى شفتيه بلسانه ثم يجذب نفسا عميقا من السجارة قبل ان يستطرد :

- تصدق بالله ، نهار مادخل السجن اخذ ضرب على قفاه ماينخدوش حرامى فى مولد .

كان أبوسداح قد اكتسب حقوقا داخل السجن . بسبب خبرته وعشرته الطويلة ..

كان قد أصبح وكيل سجان ، يحمل عنه المفاتيح ، ويجبى الاتاوات المفروضة على المساجين « عشان الافندى السجان » ! وكان اول من يخرج من الزنزانة فى الصباح ، وآخر من يدخل فى المساء . وكان صديقا لكل الحراس ، فهو اقدم من الجميع ، وكان موضع احترام من الضباط ، لأن البيه مدير السجون ، تعلم الاعيب السجن وعرف خباياه على يد أبوسداح .

وكان يتاجر فى اللحوم والبقول داخل السجن ودائما كان يوزع الحشيش على اصحاب المزاج . وكان يربح كثيرا دون ان يتعرض مرة واحدة للعقاب . ففى كل مرة تضبطه ادارة السجن ، كان يخرج براءة . لان المادة التى وجدت فى حوزته ، كانت خالية تماما من مادة الحشيش ، وكانت اعماله الواسعة المتعددة تستغرق وقته كله ، ولكنه احيانا كان يختلس لحظات قليلة يستريح فيها ، وعندئذ كان يلجأ لاحد المساجين الذين يجيدون القراءة والكتابة ليكتب له عريضة لرئيس الجمهورية ، ولم يكن يقبل أقل من رئيس الجمهورية ليرفع اليه شكواه . وكانت شكواه تنحصر فى انه زجل عمجوز وانه قضى فى السجن دهرا طويلا ، وان كل مايرغب فيه هو قرار جمهورى بالافراج عنه حتى يتسنى له ان يموت فى بيته وبين اهله .

واحيانا كنت أسأله بعد ان اكتب مايعليه على :

- وبيتك بين ياعم حسنى ؟

وكان يصمت فترة ، ثم يقول :

- والله مانا واخذ بالى يافندى ، اهو كان فى حتة كده فى مصر ، وبعدين

سمعت انهم هدوه ، اصل الجماعة بتوع الثورة هدوا مصر كلها ، يقولوا انهم عملوا كورنيش ، صحيح الكلام ده يافندى .
والحقيقة ان حسنى ابوسداح لم يكن له اى بيت ، ولم يكن له اى اهل . وعندما دخل السجن كان له اخ غير شقيق ظل يزوره بانتظام لمدة سنتين ، ثم تباعدت الزيارات بعد ذلك ، ثم انقطعت تماما واكتفى بالمراسلة ، ثم انقطعت المراسلات بينها وانقطعت اخباره تماما . وبعد اعوام طويلة سمع ابوسداح بالصدفة خبرا عن اخيه ، كان فى محكمة مصر القديمة ، عندما شاهد رجلا فى المحكمة كان يسكن الى جوارهم . وعندما سألته عن شقيقه وأين ذهبت به الايام ، قال الرجل كلاما مبهما مضغوطا ، فقد كان الرجل عجوزا ، وكان ضعيف البصر ، ثقیل السمع وربما لم يسمع بالضبط سؤال ابوسداح ، وربما لم يحدد بالضبط من يكون السائل ، ولكن ابوسداح فهم هكذا بالفهلوة وبالحدافة .
- مات فى بورسعيد سنة ٥٦ ايه اللى وداه هناك ماعرفتش . . احيانا اخرى كان ابوسداح يذكر طفولته ، فى تلك اللحظات كانت تتغير ملامح وجهه فتأخذ شكلا احسن ويصبح أكثر وسامة ، واكثر نضارة . كان يذكر امه بالخير .

- ست طيبة الله يرحمها . .

دوختها معايا ، لكن كنا عيال بقى هانعمل ايه .
ويضحك ابوسداح ، ويفتح فىا واسعا مهجورا تبدو فيه بعض الضروس المتأكلة التى دب فيها السوس ، ثم يضرب جبهته براحة يده ضربة خفيفة :

- مرة راحت طلعتنى من قسم البوليس كانوا مسكونى تحرى . . ولطمت على وشها لما ورم ، وقالت لى ، حتموت قتيل يا حسنى ، ومش هاعرف طريق جرتك فىن ، كانت مرة طيبة وعلى نباتها .
وعندما كانت تتأزم به الامور وتأخذ المشاكل بخناقها ، ويضيق صدره بسبب الغل والغيظ ، كان يغلق على نفسه باب الزنزانة ويبكى كالطفل الصغير . ذات صباح ضبطته متلبسا وهو يبكى وحيدا فى زنزانه الخالية من الاثاث ، ولما سألته عن سبب بكائه ، مسح دموعه بيده ، ورسم ابتسامة زائفة على شفتيه ، وقال :

- ابدا . . ولا حاجة ، انا اصلى افكرت أُمى ماتت وانا فى السجن ،

ولاشفتهاش .

ولكن حسنى ابوسداح ، يصبح أسعد مايكون يوم الاربعاء ، والسبب ان يوم الاربعاء هو يوم وصول الايراد . والايراد هم السجناء الجدد الذين صدرت ضدهم احكام بالسجن ، وغالبا يكون هؤلاء السجناء من شبان تتراوح اعمارهم بين السادسة عشرة والعشرين ،

وفى صباح يوم الاربعاء كان حسنى ابوسداح يرتدى افخر ملابسه ، ويخرج لمعاينة طابور السجناء الجدد ، وبعد فحص طويل والقاء نظرة مجرب عجوز ، كان يقع اختياره على صيده الجديد ، وغالبا يكون شابا قويا مفتول العضل . ودائما يحضر ابوسداح امام مكتب المأمور ، ثم فجأة .. يخلع ملابسه حتى يصبح كما ولدته امه . ويلقى بنفسه على الولد الذى وقع اختياره عليه ، ويصرخ ابوسداح ولا صرخة عنتري حرب القبائل . ويتوقع السجناء يوما اسود ، فاما ان يحصل ابوسداح على مايريد ، أو تصير مذبحه فى السجن ، ويصبح يوم المأمور والضباط والسجناء اسود من العنبر ، واثقل من ليل العاشق المكسور ! .

وكان ابوسداح دائما يظفر بصيد ، ثم يقضى يوما أو يومين فى هدوء واستمتاع ، ولكن سرعان ماتشب الخناقات بينه وبين الشاب القوى ، خصوصا عندما يكتشف الشاب انه كان ضحية مقلب كبير يقبله عرض ابوسداح . وان هناك عروضاً اكثر اغراء . وعندما يرحل الشاب من زنزانة ابوسداح ، وهو دائما ينجح فى الرحيل ، بمساعدة الاقوياء الذين يرغبون فيه ، كان ابوسداح يقضى الليل بطوله متشعلقا كالقرد فى حديد النافذة ، يصبح بكلام يقذفه كالحمم ، يسب الحكومة والسجن والزمن الغادر ، ثم لا يلبث ان ينسى ، ويبدأ ويعود الى عمله الذى اعتاده منذ ربع قرن داخل عتابر الليانات والسجون .

وعندما يكون السجن -هدفا لزيارة ضيوف اجانب ، كان ابوسداح يبدو اسعد الجميع . لأنه كان السجن الوحيد الذى يسمح له بالبقاء خارج الزنازين . وفى العادة يصحب الضيوف ضابط كبير من مصلحة السجون . ودائما يكون هذا الضابط على علاقة صداقة بأبوسداح ، فاذا جاء الضيوف خف اليهم ابوسداح يهيئهم فى ذلة تدرب عليها واتقنها ، وكان الضابط الكبير المستول يتابع معه الحديث فى ود ، يسأله عن احواله ، وأحوال السجن ، وما آل اليه حال المساجين ، وكان ابوسداح

يرد بكلام كله نفاق للادارة ، وكيف ان الامور عال ، والاحوال حسنة ، وكل شيء على مايرام . ثم يتطوع ايضا برواية قصة امام الضيوف ، وكيف كان وحشا ادميا . . هاتكا للاعراض ! قابضا للارواح ! خاطفا للاطفال ! وكيف ان السجن علمه وهذبه وادبه فاحسن تهذيبه ! ثم يختم روايته بطلب للضابط الكبير ان يأمر بتحويل الدوسيه الخاص به الى رئيس الجمهورية ليأمر بالافراج عنه فورا ، حيث انه قضى نصف عمره . بين القضبان والاسوار ، والزنازين !

وكانت هذه هي مهمة ابوسداح ، وهذه هي صفته الوحيدة بالنسبة لمصلحة السجون . عينة حية تثبت حسن سير المصلحة ، وشهادة « حق » يشهد بها شاهد من اهل الخطيئة والاعدام .

وهي شهادة كاذبة من الاساس ، ومن شاهد زور ، ولكن لكل شيء ثمن ! وكان الثمن الذي يحصل عليه ابوسداح عقب كل زيارة ، هو عدة صناديق من احقر السجائر ، ثم التفاوض بعد ذلك عن كل مايرتبه داخل السجن من مخالفات .

وكان هو عقب كل زيارة ، يحكى للناس في السجن تفاصيل المقابلة ، وكيف صاح في وجه الضيوف يطالب بحق المساجين ، وكيف لعن ابو الضابط ورئيس المصلحة ، ورئيس الحكومة . وكيف ان الضيوف صفقوا له اعجابا واحتراما . ثم كيف وصل الخبر الى رئاسة الحكومة ، وكيف طلبوا « دوسيه » ابوسداح في الحال ! وكيف خاف المأمور من الفضيحة ، وخاف من بطش ابوسداح ، فأرسل له صناديق السجائر لعله يعطف ويرضى .

وفي كل مرة يحكى فيها ابوسداح المقابلة ، كان يضيف أشياء ويضع بعض التروش واللمسات . وحيانا كان يمعن في المبالغة ، وينسى نفسه تماما ، فيحكى ، كيف تطورت المناقشة ، وكيف وضع اصبعه في عين الضابط ، ثم كيف تدخل احد الضيوف فرماه ابوسداح على الارض ! وكيف خاف المأمور عاقبة الامر ! فجرى هاربا من الفناء الى مكتبه ، وكيف اتصل بمدير مصلحة السجون طالبا النجدة ، وكيف رد مدير المصلحة عندما علم بالامر :

- ماحدش له دعوة بأبوسداح ، دا الراجل بتاعنا . ثم يصمت ابوسداح قليلا ، ثم يعلق بهدوء . .

- امال ايه ، ماهو كلامه مضبوط ، دنا دخلت المصلحة قبل منه ، هو بقى

لواء ، وانا لسه مسجون ، مش دا طيخ ؟
وكان ابوسداح يحتفى احيانا فلا يدري احد اين ذهب ، وغالبا يكون
قد اختار لنفسه مهنة جديدة داخل السجن ، تتيح له السهر في الفناء او في
ورشة التجارة ، فيقضى نهاره نائما . ليلة ساهرا ، وكان يبدو في اسعد
لحظاته عندما يعثر على عمل من هذا النوع .

- امال يا استاذ ، أحلى شغل في السجن ، شغل الليل ، ماتشعرش انك
مسجون . تعرف ، في السجن من حقك تشوف النهار ، طابور شمس
مش كده ؟ لكن الليل ممنوع عليك . عرفت ايه بقى معنى السجن ؟
ماتشوفشى الليل !

وذات مرة ، غاب ابوسداح ثم ظهر فجأة ، وكان الغضب ينش
قلبه ، ويداه ترتجفان ، عندما اقتحم زنزانتي على غير موعد ، وقال وهو
يكاد يحن :

- كشف الافراج بناع ٢٣ يوليو وصل السجن واسمى مش فيهم . وأصل
الحكاية ان الحكومة تفرج في عيد الثورة عن المساجين الذين قضوا نصف
المدة ، بشرط ان يكونوا حسنى السير والسلوك .

وفى كل عيد كان ابوسداح ينتظر كشف الافراج ، وفى كل مرة كان
يحمده خاليا من اسمه ، ورغم تأكيد ابوسداح ان شروط الافراج لا تنطبق
عليه . الا انه كان ينتظر الكشف ، ثم يصبر على ان يراه بنفسه ليتأكد من
عدم ورود اسمه . وبالرغم من ان المسألة بسيطة ورغم ان الافراج يتم
بشرط ، وأن هذا الشرط لا ينطبق على حالة ابوسداح من قريب أو بعيد .

خصوصا شرط نصف المدة ، لان ابوسداح محكوم عليه بأكثر من مائة
عام . وان كان احد لا يستطيع ان يعرف كم عدد السنين المحكوم بها
عليه ، ولأن الحكم بالسجن المؤبد صدر ضده أكثر من ثلاث مرات ، عدا
احكام اخرى تتراوح بين عشر سنوات وخمس سنوات !

تشرب ابوسداح كوب الشاي الذى قدمته له ، وكان قد انتهى من
رواية كشف الافراج واسمه الذى لم يزين الكشف ، تم قال لى بلهجة
طبيعية للغاية :

- وشوف وشك بحير بقى .

وعندما سأله عما اذا كان ينوى الانتقال الى سجن آخر قال بنفس
اللهجة الهادئة :

- ابدا ، انا هاريج نفسي خالص ، هانتحر . ورحت اشرح له كيف ان الانتحار هروب من مواجهة الواقع ، وجبن في تحمل المصير ، وكيف ان موته يترك اثرا حتى في ضمير الذين قتلوه ، لان امثاله ليسوا اكثر من مجرد اسماء في ورق ، اثباتها مثل محوها . عندئذ هب صائحا محتجا :
- كلام ايه دايا استاذ ، دنا عيلتي بره تأكل اللحمه نيه . وتصورت بالفعل انه يقول الحقيقه ، فرما كان وراءه افراد من اسرته ، مجرمون عتاه يستطيعون الاخذ بالثأر ولكن فوجئت به يقول :

- أنا عيلتي كلها ناس جهوات واكابر . احمد ابوسداح كان وزير . والشيخ على ابوسداح كان شيخ الازهر ، وابراهيم ابوسداح كان ثورجى كبير قوى ، هوه الى عمل الثورة بتاع عبدالناصر . ولم يهدأ انفعاله ، الا عندما تظاهرت له بأننى اعرفهم ، وائنى التقيت ببعضهم فى الخارج . عندئذ طابت نفسه واستراح . وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة :
- امال يا استاذ ، واللى خلق الخلق لازم اخلى المأموره يندم ، ويقول ياريت الى جرا ماكان ، ان ماخدوه فى حديد ، ما بقاش أبوسداح . وعندما استأذن فى الانصراف ودعته والحزن يطل من عينى وصوق يخنقه الانفعال .

وعلى باب الزنزانه ، توقف ابوسداح لحظه وقال :
- بقولك ايه . . ادينى علتين سجائر عشان عاوز أقعد لوحدى فى الزنزانه افكر قبل ما اموت !

وانتشرت قصه انتحار ابوسداح فى السجن انتشار النار فى الهشيم ، حتى الحارس المكلف باغلاق الزنازين . صاح بعد ان احكم اغلاق زنزانه ابوسداح :

- أبقى سلم لى على ابويا اما تروح الجنة يا أبوسداح . ورد ابوسداح من داخل الزنزانه :

- وانت فاهم ان ابوك حيورد على جنة ، دا انتو صنف ماينفعش فيكم الا الحرق .

وفى المساء ، كان المساجين يتشعلقون بحديد الباب ، وينادون على ابو سداح بأعلى صوت :

- يا أبوسداح ، انت لسه عايش ! اخص عليك راجل مرة .
ولم يرد ابوسداح ذلك المساء على احد . لدرجة اننى اعتقدت انه نفذ

وعده ، وانه بالفعل فعلها ومات ! .
ولكن عندما جاء حارس الصباح ، كان ابوسداح هو اول سجين يهرع
الى دورة المياه . وعندما سأله بعض السجناء العابثين عن السر في تأجيل
المشروع ، أجابهم في وقار :
- وانتو فاهمين اننا أموت نفسى بلاش ، انا لازم موق يقلب الدنيا دى
كلها .

واكتشفت ان ابوسداح على مدى السنين التى قضها فى السجن ، كان
يعلن عن تنفيذ مشروعه بالانتحار ، مرة كل عدة اشهر ، وكانت هذه
وسيلة لجمع اكبر كمية من السجائر من السجناء الجدد . وعندما كان
يشغل ابوسداح بأمور اخرى ، وينسى مشروع الانتحار ، كان السجناء
يذكرونه بأن الموعد قد فات ، وحيانا كان يرد عليهم مازحا :
- وانتو يعنى شافين المساجين ماشاء الله قوى ، دول كلهم شحاتين ! .
ولقد اتيج لى ان ارى ابوسداح لآخر مرة فى حياتى قبل ان اغادر
السجن بشهر واحد . فقد وصل الى السجن ذات صباح ضابط كبير ،
ومعه قوة من العساكر وكشف بأساء السجناء المطلوب ترحيلهم الى
سجون اخرى بعيدة ، وكان اسم ابوسداح ضمن الكشف الذى يضم
اساء المطلوب ترحيلهم الى بعيد . ولم يصدق ابوسداح فى البداية ظنا ان
فى الامر خطأ ما .

وعندما تأكد من ان الامر حقيقة ، هاج كالمجنون ، وخلع ملابسه
والقى بنفسه فى المرحاض ، وهدد كل من يقترب منه بالقتل ، وعبثا حاول
المأمور ان يقتعه ، وعبثا فعل الضابط الكبير الاخر . حتى اصداؤه من
الحراس فشلوا فى اقناعه بتنفيذ الامر . وعندما حاولت انا الاخر صرخ فى
وجهى :

- أروح فىن يافندى ، بقى كمان .. رضينا بالهم ، والههم مايرضاش ..
أروح فىن انا ، دول باعيتنا سجن مقطوع ، واللى فيه كلهم فلاحين .
وعندما قلت له :

- ماهو اللى هنا سجن ، واللى هناك سجن برضه .
أجاب صارخا :

- يافندى انت تعرف ايه فى السجون ؟ انا بقالى اربعين سنة فى السجن
واعرف الفرق ايه ؟؟ دا احنا قاعدين فى قصر هنا . عاوز حاجة تبع
نحيبها . الوارد هنا اكثر م الراح . دا هناك كل فىن وفين لما تلاقى

مسجون جديد . طب انا قتيل النهارده . ومش منقول من هنا .
ظن ابوسداح انه لصلته الشديدة بالادارة ولاخلاصه العميق لمصلحة
السجون . فان الامر سيمر في هدوء ، وقد يصدر قرار في اخر لحظة يعفيه
من مشقة الانتقال الى سجن بعيد .
ولكن لان شغل الحكومة يجب ان ينحز ، ولأن اوامر الحكومة بنسخي ان
تفذل . فقد صدرت الاوامر الى الحراس بالقبض على ابوسداح ومهما كان
الضمن .

وهكذا صرخ العساكر المعلقين على الجدران . . حرس سلاح . . ودق
جرس السجن دقات رتيبة سريعة متلاحقة ، ودوت الصفافير تدعو فرقة
المطاردة لدخول السجن . ولم اسمع من خلف جدران الزنزانة المغلقة الا
اصوات الشريط الذى يجرى تمثيله في الفناء . صرخات ابوسداح وفي
البداية كانت عالية ومجلجلة . ثم نفس الصرخات وقد تلاشت وخففت
ثم هدأت تماما . وصوت الكرابيج تمزق الجو ومع الجو تمزق جلد
ابوسداح ، ثم شيء ما ، ربما جسم انسان يجر على ارضية الفناء . ثم
اقدام تركض ، وايدي ترتفع بالتحية ، واصوات مبهمه تلقى اوامر ،
واقدام تحبط الارض في انتظار اوامر . . ثم سرعان ماهدأ كل شيء ،
واطبق الظلام والصمت على الفناء وعلى السجن ، وعلى السجناء . .
اخيرا مضى ابوسداح .



الفصل الثاني

البيانكي

اليانكى هذا اسمه ، وهو ليس اسمه الذى ولد به ، ولكنه اكتسبه من مهنته . فهو فى الاصل بحار من بورسعيد كان يعمل على باخرة بضاعة أمريكية ترفع علم بنما تتسكع بين موانئ الشرق الاقصى ، وتقرب مرة كل عام من شواطئ الشرق الأوسط ، فى خلال رحلتها السنوية الى اوربا . وعندما كانت الباخرة ترسو فى ميناء بورسعيد ، كان يغادرها ويبقى فى المدينة ينتظر عودتها ليعود الى الشرق الاقصى من جديد ! ولأن الباخرة كانت أمريكية ، ولأن حسين اسماعيل - وهذا اسمه فى شهادة الميلاد - كان قد تعلم من طول ماعمل فى البحار لغة الانجليز ، ويفضل العمل مع البحارة الامريكان ، كان ينطق لغة شكسبير بلكنة امريكية ، فيبدو وكأنه راعى بقر مفلس فى فيلم من أفلام هوليوود . لذلك أطلق عليه الناس فى بورسعيد لقب اليانكى ، وصار اللقب اسمه بعد ذلك ، ونسى الناس اسمه القديم ، حتى هو نفسه لم يعد يذكره ، وربما كان هو نفسه أسعد الجميع بالاسم الجديد . وذات يوم جاءت باخرة اليانكى الى بورسعيد . وارتدى اليانكى فى ذلك

الصباح اجل حلة بحرية لديه ، وخرج ولا ماك ارثر خلال حرب كوريا ، يده في جيب البطلون ، والسبيجارة الامريكانى تتدلى من جانب فمه ، ونظارة الشمس البيرسول تغطى عينييه ، وتتدلى من كتفه حقيبة كبيرة من قماش فاخر ، ومعه زميل يابانى يعمل بحارا على نفس الباحرة ، آثر أن يقضى أجازته هو الآخر في بورسعيد ضيقا على اليانكى !

وكان نهار أغبر ! استوقفهما البوليس عند البوابة ، وفنشهيا وعثر معهما على كميات ضخمة من الحشيش ، وبعد أيام قلائل كانا يقفان معا أمام القاضي ليصدر عليهما حكما بالسجن المؤبد ، وصرخ اليانكى من هول الكارثة ، أما اليابانى فقد بدأ هادئا ، ربما لأنه لم يفهم منطق الحكم ، وربما لأنه يابانى من سلالة قوم يحتضنون الموت وعلى افواههم ابتسامة فرح . وفى قلوبهم ابتهاج عظيم !

المهم ، أن اليانكى عاد ومعه اليابانى الى السجن . ولكن اليانكى لم يكف لحظة عن الصراخ والبكاء واللطم كالمراة الثكلى على الخدين ! ولاول مرة سأل اليابانى زميله اليانكى عن الحكم ، فأخبره أن الحكم بالمؤبد ، معناه السجن مدى الحياة ، فإذا كان السجين حسن السير والسلوك ، منحوه الحرية بعد عشرين عاما ، والا تركوه خلف الاسوار ليموت ميتة الكلب الاجرب . وسأل اليابانى زميله اليانكى في هدوء . وماذا تنوى أن تفعل . ورد اليانكى في هياج شديد ، سأشتق نفسى واموت .

وتمتم اليابانى : غاية العقل ، فليس من الحكمة أن يقضى الانسان حياته كلها في زنزانة يأنف أن يسكنها خنزير ! ولم يضع اليابانى وقتا ، تناول بنطلونا من بطلونات اليانكى وقص منه حبالا علقه في سقف الزنزانة وجاء بمقعد جعله تحت الحبل ، وراح يدرب اليانكى على الطريقة المثلى لكى يشق الانسان نفسه بأسرع الطرق واحسنها . ثم احتضن اليابانى اليانكى بقوة وودعه بحرارة ، وتواعدا على اللقاء بعد ساعات في ملكوت السماء . ومضت لحظات الوداع بطيئة . اليابانى هادىء كما هو ، ولا يبدو عليه اثر الانفعال . فلا هو حزين . ولا هو آسف ! واليانكى دائم العويل والصياح ، حتى احمرت عيناه من كثرة البكاء ، واحتقن وجهه من شدة الانفعال .

ومر الليل كما مر غيره على سجن بورسعيد . وعندما جاء حارس الصباح يفتح زنزانات المساجين . تسمرت قدماء عدد باب زنزاناته في الدور الارضى ، وراح ينفخ في صفارته معلنا حالة طوارئ من النوع الجسيم ، وعندما جاء المأمور والضباط وهيئة التحقيق ، كانت الزنزانة رقم « ٩ » حيث يقبع البحار اليابانى تفرق في صمت كئيب ، واليابانى يلف حول نفسه في الحبل المعلق في سقف الزنزانة وقد أصبح جثة باردة ، فارقتها الحياة منه وقت طويل . وعلى

ارضيه الزنزانة البائدة . ورقة صغيرة تركها الياباني .. لمن يهجه الأمر .. يعلن فيها انه انتحر لانه لا يستطيع أن يتحمل مثل هذه الحياة !
واسرع المأمور ورجاله الى الزنزانة رقم « ١٠ » حيث يقيم اليانكى ، وفوجيء المأمور بأن حبل المشنقة يتأرجح خاليا من جثة اليانكى وكان اليانكى نفسه يغط في نوم عميق ويحلم احلاما لذيدة ، وشخيره يقلق سكان كوكب المريخ ! .
وعندما استيقظ من نومه ، واكتشف أن الياباني قد مات ، أصابه الذهول فهو لم يكن يصدق أن انسانا مايقدم على الموت حتى ولو اضطرت الحياة الى قضاء العمر كله في حظيرة للخنازير ! ولم تقض أيام حتى تم ترحيل اليانكى الى الليمان ، ونسي تماما أمر البحار الياباني ، وانغمس في حياته الجديدة راضيا بكل شيء . حتى خلال العمل الشاق في ليمان طره ، كان يوزع النكات هنا وهناك ، وأحيانا كان يحكى للمساجين عن مغامراته العاطفية ، في هونج كويج ، وماكاو ، وجزر بحر الصين ! .

وعندما التقيت به في سجن القناطر كان قد مضى عليه نزيل السجن ستة عشر عاما ، وكان قد فقد احدى عينيه نتيجة شجار مع أحد الحراس . ولجأ الى القضاء مطالبا بتعويض عن فقد عينه ، وحدد ١٠٠ ألف جنيه قيمة التعويض ، وكمكافأة عن فقد عينه .. عهدوا اليه بعمل بسيط في السجن . رعاية كلبة المأمور والعناية بها والترويح عنها خلال ساعات العمل الرسمية في السجن واعتباره العمل الوحيد الذى يقوم به اليانكى . وهو يكفى لتأديب اليانكى وتهذيبه ، ولكى يعود الى الطريق المستقيم !

ومن خلال كلبة المأمور اصبح لليانكى نفوذ في السجن ، بل اصبح نفوذه يفوق نفوذ بعض الضباط والحراس ، بل اصبح الحراس يترددون عليه ، لانه كثيرا مايمتثل بالمأمور ، يحدثه في شأن من شئون الكلبة ، وكثيرا ما كان يخرج من حديث الكلبة الى حديث السجن ، وما فيه من مأخذ ومخاز وجرائم ومجون ! وكان الحراس الذين يرتبكون من الجرائم مايستحق اضعاف العقاب الذى حل بالمساجين ، يقسمون للجميع ، أن كل أخبار السجن تصل الى المأمور عن طريق اليانكى ، وأن اليانكى هو عين المأمور واذنه على كل مايقع ويدور داخل الزنازين . ولم يكن اليانكى يخفى حقيقة دوره ، ولم يكن يتم بنقل مايشيعة الحراس والمساجين بل احيانا كثيرة كان يحاول في حديث عابر أن يؤكد الاشاعة ويشبها عند الآخرين .

واكتشفت بعد فترة ، أن الكلبة والاشاعة ، هما مصدر رزقه ، فباسم الكلبة كان يحصل على أجود اللحوم من المطبخ . وباسمها كان يستولى على أجود أرغفة الخبز من الفرن . وبسبب الاشاعة ، كان يحصل على مايريد من كميات الكيروسين والبقول ، والشاى ، وكان يحصل من وراء تجارته المحدودة على

مايجعله يعيش بكرامة في غابة سجنه الطويل .
وأحيانا كثيرة كان يدعو اليانكى للاشتراك في مباراة تنس الطاولة ، مع عدد آخر من أثرياء المساجين ، وكنا نلعب على رهاق ، ويتساوى الخاسر والرابح في النهاية . لاد اليانكى كاد يتصرف في قيمة الرهان قبل أن تبدأ المباراة . ولم تكن تزيد قيمة الرهان عن خمسين سيجارة ولكنها كانت كافية لتجعل اليانكى أسعد من تاجر ربح في البورصة عدة الوف في ساعات !

ولكنه ذات يوم أخطأ في تحديد نوعية مسجون جديد وافد على السجن . وهو شاب وسيم يبدو عليه انه من سلالة ممالك حكموا مصر في العصور الوسيطة . أحمر الشعر أزرق العينين . أصفر الشارب ، جسمه المشقوق وعضلاته المنتفخة تشير الى مدى الرفاهية التي تمتع بها في طفولته ، وتحدد نوع الطبقة التي تربى في احضانها منذ مولده وحتى لحظة دخوله الى الليمان ، وتوسم اليانكى فيه زبونا من شأنه أن يزيد من دخل اليانكى اذا انضم الى مباريات تنس الطاولة ، وقبل الشاب عرض اليانكى شاكرا ، وانضم الى الفريق على الفور ! واكتشف الجميع من أول ضربة للشباب انه بطل محترف ، ثم اكتشفنا في نهاية المباراة التي ربحها بسهولة ، انه بطل مصر في اللعبة . ويطل العرب ، وانه ثالث دورة طوكيو ، والاول والثاني من بلاد اليابان . ولقد كانت فرحة الشاب لاتوصف عندما عرض عليه اليانكى أن ينضم الى فريق تنس الطاولة ليلعب على رهاق . فهو أولا يضمن الجميع في جيبه . وهو ثانيا في حاجة الى علب الدخان . ولذلك ، وبعد أن انتهت المباراة اتجه الى اليانكى عقب المباراة وطلب منه علب الدخان . وابتم اليانكى كعادته مع كل ربون حديد لم يفهم بعد سر اللعبة ، ولكن الولد الوسيم كان جادا اكثر من اللازم ، وكان مصرا بشدة على أن يحصل على علب الدخان التي ربحها في المباراة . وأشدت النقاش بينهما ، وارتفع صوت اليانكى ، يسب دين السجن والسجناء الانذال .

وامتدت قبضة الولد الى وجه اليانكى ، ليطرحه أرضا فاقد الوعي ، ولتنطلق الصفافير تعلن حالة الطوارئ ، وكانت ضربة قاتلة لم تحطم أسنان اليانكى فقط ، ولكنها حطمت مكانته التي اكتسبها في السجن ، وقضت عليه تماما . وجعلت منه ملطشة للحراس والسجناء ، وحتى كلبة المأمور أصبحت اذا رآته ، بيحت في وجهه ، وتكاد أن تبصق عليه ! .

ولكن . . كيف ؟ ولماذا حدث التحول الخطير في حياة اليانكى ؟ وكيف تحول الزمان ؟ والحراس ، والسجناء والكلبة ، عن اليانكى ، وقلبوا له جميعا ظهر المجن ؟

لحظة نشبت الخناق بين اليانكى والولد الوسيم المقتول العضل ، كان اليانكى هو ملك السجن غير المتوج . وكان من خلال كلبة المأمور قد استطاع أن يسيطر

على الادارة وعلى المساجين والحراس ، ولكن ضربة واحدة من قبضة الشاب القوى ، اطاحت باليانكى ارضا ، وأطاحت بنفوذه فى نفس الوقت . والسبب أن اليانكى حاول فى بداية المعركة أن يثبت وجوده كمقاتل ، ولكن الولد القوى قطع عليه الطريق تماما . وراح يكيل له الضربات تباعا ، وسقط اليانكى على الارض اكثر من مرة ، ثم سقط اخيرا وعجز عن الوقوف ، ثم صرخ من شدة الضرب ، وكان صراخه عاليا ، جذب أغلب المساجين الى صالة اللعب ! ولما تأكد اليانكى انه خسر المعركة ، قرر أن ينتقم بطريقته الخاصة ، فضرب كلبة المأمور ضربة قوية كسرت عظام ساقها الامامية وضلعا من ضلوعها .

وصرخت الكلبة واختلط صراخها بصراخ اليانكى . وجاء المأمور على صراخ الكلبة ، فقد كانت عزيزة على قلبه ، وأحيانا كان يعفو عن مسجون مخطئ اذا توسل اليه من أجل خاطر الكلبة ! وازداد غضبه عندما رأى الكلبة وهى تعرج وقد التصقت بالحائط وراحت تصرخ صراخا حادا بل أن المأمور الذى كان شديد الاعتداد بنفسه ، شديد الغرور ، أسرع نحو الحراس فخطف العصا من يد أحدهم ، وانهال ضربا على المساجين بوحشية وبعنف . بل انه وهوفى حومة غضبه ، ضرب الحراس أيضا ، وعندما سأل اليانكى عن حقيقة الامر ، أشار اليانكى الى الولد المفتول العضل ، وقال للمأمور :

- انهال بالضرب على الكلبة ، فلما تدخلت بينه وبين الكلبة ، انهال على بالضرب ..

ولم يصبر المأمور حتى يسمع أكثر ، وانهال بعصاه الشوم على رأس السجين الحديد فسقط الولد مغمى عليه . وبعثا حاول حراس السجن أفافة السجن دون جدوى فاستعانوا بالطبيب الذى قرر أن الولد مصاب بارتجاج فى المخ ، وأبدى الطبيب مخاوفه من أن تكون الإصابة جسيمة ، وهمس فى أذن المأمور أن نقل الولد الى أحد المستشفيات امر ضرورى ، وأثبت رأيه هذا فى دفتر السجن ، وحتى يفلت من المسؤولية اذا حدث ومات السجين الشاب ! ولسوء حظ المأمور واليانكى معا ، أن الولد كان ابن عائلة لها نفوذ ، وهو الذى اختار السجن بنفسه ، فقد استدعى للتجنيد بعد النكسة وذهب على أمل أن يقضى عاما ثم يترك الجيش ويعود الى حياته المدنية من جديد ، إلا أنه بعد قضاء أربعة أعوام فى الجندية اكتشف أنه سيظل تحت السلاح حتى يتم ازالة آثار العدوان ، ولما كان موعد الازالة لا يعلمه الا الله ، فقد قرر الشاب أن يهرب من الجيش ، وبعد أشهر سلم نفسه مع علمه بالنتيجة سلفا . المحاكمة والحكم عليه بالسجن لمدة عام . يخرج بعدها الى الحياة المدنية ، وهو الأمر الذى تحقق بالفعل ! المهم أن الولد نقل الى المستشفى ، وتبين أن أصابته جسيمة سببت له شللا مؤقتا ، مما جعل السجن مقصد عشرات من المفتشين والمحققين ، وسقط المأمور

في دوامة لا تنتهي ، وتحقيقات لا أول لها ولا آخر ، وكشفت التحقيقات عن الحقيقة ، كلبة المأمور ، ونفوذ اليانكي الذي وصل اليه من خلالها ، وكميات اللحم التي كان يستولى عليها من المطبخ ، وأرغفة الحبز التي كان يلهفها من المخبز ، وارهابه للحراس والمساجين على السواء .

المهم أن المأمور لم تهترفيه شعرة لكل هذا الذي سمعه فقد كان على علم بكل التفاصيل ومن قبل أن يبدأ التحقيق . ولكن الذي جعل المأمور يفقد صوابه تماما . هو ما شهد به الشهود ، أن اليانكي هو الذي كسر ساق الكلبة وليس الولد المشلول !

وهكذا دخلت فرقة من حراس السجن ذات صباح زنزانة اليانكي لتجردها من كل شيء ، ولتطبق اللائحة عليها . فلم تترك في الزنزانة إلا بطانية واحدة ، فيها من الخروق أكثر مما فيها من القماش . واحتج اليانكي بأنه مسجون درجة أولى ، وهي الدرجة التي اكتسبها من طول ما عاش خلف الاسوار ولكن احتجاجاته كلها ذهبت ادراج الرياح .

وتطبقا لنص اللائحة التي وضعت في عصر الخديو اسماعيل ، أمروا بتخزين اليانكي ، وهو تعبير يطلق على المساجين الذين لا عمل لهم ، ومن ثم ينبغي أن يلزموا الزنزانة وأن تغلق عليهم فيها عدا ساعة واحدة خلال النهار ، وأدرك اليانكي أنه سقط في بئر لا قرار لها ، وأن السجن الحقيقي قد بدأ الآن ، فلم يكن اليانكي كغيره من السجناء . فهو بلا أهل ولا أصدقاء ، وهو يأكل عيشه بعرق جبينه ، أو بعرق ذكائه ، أو بعرق انتهازيته ، أو بعرق شطارته ، أو بعرق ضميره ، المهم أن جزءا فيه لا يد أن يعرق لكي يأكل عيشه داخل الاسوار .

انه لا يذكر أبدا أنه استدعى للزيارة كغيره من النزلاء فهو حتى قبل السجن كان قد انقطع عن زيارة حى المناخ حيث يقطن اخوه ؟ وكان أحيانا يلتقى في بورسعيد بأحد أقاربه صدفة ، فيصافحه كما يصافح عابر سبيل ، ثم يتركه ويمضي الى حال سبيله . وكان يباهى الآخرين ، بأن أباه هو البحر وأهله هم البحارة . وزوجاته هن كل النساء اللواتي يتسكن على أرصفة أى ميناء ! ولما اليانكي الخير بأساليب السجناء الى طريق الشكاوى . فانهالت العرائص على مصلحة السجون تتهم المأمور والادارة بكل رذيلة ، وبعضها كان حقائق ، والبعض الآخر كان من نسج الخيال . ولكن الادارة المدربة ذات الخبرة العريقة في عالم السجون ، كانت تعرف كيف تسدد هذه الشكاوى . بالشكل القانوني . وبالطريقة التي تجعل الادارة فوق مستوى الشبهات ! .

وضاقت الاحوال باليانكي تماما ، فأعلن الاضراب عن الطعام . وفي العادة يترك المسجون المضرب عن الطعام ثلاثة ايام دون اهتمام ، فاذا واصل اضرابه

بعد ذلك ، استدعت ادارة السجن وكيل النيابة لتحقيق في أسباب الاضراب . ولكن الادارة في حالة يانكى تركته اسبوعا كاملا بلا ادنى اهتمام . والسبب ان المأمور كان شديد الوثوق ان الياكى ليس مضربا بالفعل . وانه يأكل حتى يشبع او يشرب الشاى حتى يرتوى ! وان دخله من السجائر زاد حتى خلال فترة الاضراب .

وفى تلك الايام التى أعلن فيها الاضراب ، كنت دائم التردد عليه فى المستشفى حيث نقلوه . وكان الياكى طوال الفترة التى امضيها فى زيارته بالمستشفى ، يحكى لى عن ايامه فى بلاد الشرق الاقصى . كيف انه تاجر فى الافيون فى ماكو ، وكيف عشق فتاة فى عمر الورد فى هونج كونج ، وكيف اضطرته الظروف الى قتل انسان فى سنغافورة !

- تصدق بالله ، كنت اشهر بحار فى بحر الصين ، و انت تسافر هناك كثير وتقدر تعرف ، اسأل عن الياكى فى امها حته الناس هناك تقولك .

وكان يانكى خلال سرده لاحداث قصصه الوهمية ، يقوم من فوق سريره ، ويتمشى خطوات حتى يصل الى سرير مسحون آخر مريض ، فيلتقط من امامه ثلاث حبات من ثمار التين ، يأكلها على عجل قبل ان يعود الى سريره ، وكان الرجل العجوز الذى قضى نصف حياته فى السجن ، يضحك ضحكة متقطعة ، وهو يعلق على فعلة يانكى .

- ما تاخذ كام واحدة كان عشان الاضراب بتاعك ينفع . وعندئذ كان يانكى يصيح معلقا :

- وهمه دول هيعملوا ايه ؟ انا باكلهم بس عشان أعرف أشرب سيجارة . وكان يجلس على سريره ويشعل سيجارة ، ثم يبدأ يروى قصة عن بنت صينية عشقها ذات يوم بعيد :

- كان جسمها ملء يامناذ وكانت هريانة من الجماعة الشيوعية . أصلها كانت بنت واحد ملك . تصدق باللى خلقك ، كانت تفك العشرة جنيه ، مايقدوش معاها يومين - كانت آخر نראה واخر جو . وكانت تشتري لى الحشيش على جسابها ، وتقولى اشرب يا يانكى . طب واللى خلقك المأمور بتاعناه كان مابقدر يكلمها ، ولاهيه ترضى تبص لواحد زيه ، غير شى زمن ! .

واحيانا كثيرة ، كان يذكر الولد اليابانى الذى قبضوا عليه فى بورسعيد وحاكموه مع الياكى .

- كان ولد طيب وابن حلال بس كان غشيم ، ومش بتاع ديا . شتى نفسه العييط !

وذات مرة سأله :

- مش الموت احسن من السجن يا يانكى :

ورد اليانكى فى غاية الغضب .
 - مين قالك الكلام الفارغ ده ما احنا عايشين اخر حلاوة ايه . فاضل اربع سنين ونطلع ، ونركب البحرثاى ، ونسافر ، ونبقى آخر جو !
 لقد كان الرجل رغم كل شئ يحلم ، لقد فقد عينه وتحطمت حياته تماما ولكنه لم يفقد القدرة على الاحلام .
 - لما أخرج باذن الله ، هاعمل تهريه واحده ، واكسب لى كام الف جنيه ، واترك البحر واشترى حته ارض واقعد .
 واحيانا كان يخرج من احلامه الى الواقع البائس الذى يحياه ..
 - ودين النبى لو المأور مامشى معايا كويس لاكون عاملها فيه وقاتله . هوه العمر فاضل فيه أد ايه ؟؟ ان شاء الله يارب يشقونا .
 وذات مرة سألته :
 - وفيها ايه لواصطلحت مع المأمور .
 ورد فى هدوء .
 - مفيش مانع . بس يسلمنى الكلبة . .
 وذات مساء ، شعر السجناء بحركة غير عادية فى السجن .
 دخل المأمور والطبيب الى الفناء قبل منتصف الليل بقليل . وصاح مسجون من خلال قضبان النافذة :
 - فيه حته ربنا تاب عليها من عذاب السجن ، ويتودع الليلاى فى المستشفى .
 وفى الصباح عرفنا ان اليانكى داهمته نوبة قلبية ، وأنه يجتاز رحلة خطر شديدة بين الحياة والموت ! ورغم انه فى مثل هذه الحالات تمنع زيارة المريض ، الا ان مستشفى السجن تتبع نفس اسلوب السجن الخاص ، وضاق المستشفى ذلك اليوم بالملثات الذين توافدوا عليها ليشاهدوا اليانكى وهو يصارع الموت . ولم يصمد اليانكى طويلا . فمات فى المساء التالى . . وظل راقدا فى مشرحة السجن ثلاثة أيام فى انتظار ان يأتى أحد لاستلام جثته . ثم كفنوه وسلموه الى حانوق يتعامل مع مصلحة السجون .
 ورافقه عشرة من المساجين القدماى الى البوابة الخارجية . واصطف جرس شرف من عماسكر السجن عند الباب ، قاموا باداء التحية الاخيرة لليانكى .
 البحار المغامر القديم الذى طاف حول الدنيا ، قبل ان تغرق سفينته فى قاع السجن .



الفصل الثالث
سيد الحليوة

لحظة وضعت قدمي في السجن ، كان قد مضى عليه تسعة عشر شهرا . وكان قد مضى عليه منذ ولادته تسعة عشر عاما لا تزيد !
وعندما رأيته في فناء السجن اول مرة ، كان يبدو كتلميذ في المدرسة الثانوية ، وكان يرتدي بدلة حسنة الصنع ، جيدة القماش ، ويرسل شعر رأسه على موضوعة هذه الايام . ولعنت الحظ الذي قذف بمثل هذا الصبي الوسيم الى حيث القيود والقضبان ! وتصورت انه ربما اخطأ في المدرسة ، فضرب زميلا له او اعتدى على مدرس من المدرسين ، ربما تورط في سرقة صغيرة ، ربما كان يلهو فتجاوز بشقاوته الحدود المرسومة !
ولكني كدت اجن عندما علمت ان الولد الصغير قاتل ، وانه قتل شقيا شهيرا في منطقة تمتد من ابو صير الى سقارة الى الحوامدية ، وهي المنطقة التي اطلق عليها بعض رجال الامن اسم مثلث الرعب . .
وأصل الحكاية ان الولد الوسيم الصغير ، كان في الرابعة عشرة من عمره ، عندما خرج أبوه ذات مساء من قريته سقارة قاصدا الى قرية ابو صير ، فقد كانت

هذه عادته كل ليلة جمعة حيث يقضى شطرا من الليل عند بعض الاصدقاء ، يشربون الشاي ، ويدخنون الجوزة ، ربما يلعبون الورق . ثم يعود عند منتصف الليل وحده بين الحقول الى سفارة . واحيانا في ليالى الصيف الندية ، والجو حلو ، ونسمة هواء طرية تهب من ناحية الصحراء المجاورة ، كان الولد السعيد يرفع عقيرته بالغناء . فقد كان يتمتع بصوت جميل ، أحيانا كان يستخدمه فى الغناء فى أفراح الفلاحين ، ولياليهم الملاح .

والرجل نفسه كان وسيما كسيدنا يوسف ، ملامحه ليست شبيهة بلامح الفلاحين ، فالعيون ررق والشعر أصفر . والبشرة بيضاء . . ولا أحد فى القرية كلها يدري من أين جاء فالبعض يؤكد انه من بلاد فى ريف المتصورة . وانه من نسل عساكر فرنسا الذين كسرهم عسكر شجرة الدر وأسروهم مع ملكهم لويس التاسع ، ثم وزعهم على بيوت الفلاحين كعبيد ، ولكنهم اعتنقوا الاسلام بعد حين وتزوجوا من نساء الفلاحين واحبوا منهم نسلا يضرب به المثل فى الوسامة والجمال ! والبعض يؤكد انه ابن سائحة خرجاية جاءت إلى مصر فعمشقت الاعرابى الترجمان ، وحملت منه سفاحا وكان هذا الرجل هو ثمرة هذه العلاقة المحرمة !

ولكن عجائز القرية وشيوخها يؤكدون انه ابن امرأة كانت تعمل غازية فى الافراح ! وانها كانت غجرية تعيش خارج القرية ، وان الانجليز عندما اجتاحتوا القرية خلال ثورة ١٩١٩ . لم يجدوا امرأة تطارحهم الغرام الا هذه الغجرية . وان ثمرة هذا اللقاء هو هذا الشخص نفسه ، الذى كان يتمتع بوجه جميل وصوت اجمل من وجهه

المهم . . الحكايات عن أصله وفصله كثيرة ، والاشاعات اكثر . ولكن المؤكد انه كان رجلا طيب القلب ، وكان خنايا على نحو ما ، ولم يكن بينه وبين احد عداوة . ولذلك كان يسرح وحده بين الحقول دون خوف ، الى ان كانت تلك الليلة المشئومة . حين عاد من سهرته المألوفة . وعند نقطة يضيق فيها الوادى وتضيق عليها الصحراء ، انفجرت اعواد الذرة عن ماسورة بندقية ، انطلقت منها رصاصة اخترقت قلب الرجل الطيب ، فتكوم غلى الارض دون ان يتفوه بكلمة !

وما أشد الغموض الذى يكتنف مصرع رجل من هذا النوع . فلا خصومات ولاحزازات وليس لديه مايجعله على طمع او حسد من أى نوع ! ولكن جموع الفلاحين لديهم حساسية خاصة قادرة على اكتشاف الحقيقة . فلم يكذب يوم اسبوع ، حتى تهامس الناس فى قرية ابوصير وفى القرى المجاورة بأن القاتل هو عليه . وان السبب وراء الجريمة هو زوجة الرجل القاتل . فالزوجة جميلة ، عودها ملفوف ، وعيناها وسيعتان ، وشعرها ينسدل على ظهرها ، وضحكاتها

عالية ، ورنيتها يدغدغ الاعصاب ، وعندما عرض نفسه عليها ، تمتعت وتدللت وظن عليه انه موقف تحيده النساء ولكنهن لا يلبثن ان يسقطن . .

ولكن عليه فوجيء بأن المرأة مصرة ومتشبثة ، وعندئذ قرر ازاحة زوجها عن الطريق : كى يخلوله الجو ، ويفوز بالزوجة عنوة او سلا ، فلا شيء يهم وليس هناك اى فرق ! والناس الطيبون فى قرى الجزيرة قالوا ان عليه هو القاتل فعلا ، ولكن ليس وراء الجريمة أسرار . فقد كان عليه ينتظر شخصا مالمقتله ، ولكن سوء الحظ ساق القتل فى تلك اللحظة بالذات . فى هذا الطريق بالذات ، فقتله عليه عن طريق الخطأ ليس الا ! .

المهم ان الشاب الوسيم مات قتلا ، والمهم ايضا ان الاصابع كلها امتدت تشير الى عليه بالاثام ، وتؤكد الاتهام عندما ارسل عليه شخصا من طرفه ، سلم الاسرة المنكوبة ثلاثائة جنيه ، كتعويض عما أصاب الاسرة من فقد الولد ، ويبدأ للجميع ان كل شيء قد انتهى . . القتل رحل ، والقاتل دفع البدية ، والأم تحاول ان تدبر امورها فى هدوء ، ولكن سيد الصغير نجعل القتل لم يبدأ له بال . اصابه شرود غريب ، وقال الفلاحون ان بالولد مسا من عفريت ، واعتزل الناس ، حتى رفاق الحارة عزف عن صحبتهم .

وبدت عليه ملامح رجولة مبكرة ، فاذا مر بجماعة قرأ عليهم السلام . واذا مات احد فى القرية ذهب ليؤدى واجب العزاء . وكان الولد وسيا كأيبه . ولوعا بالغناء كأيبه ! ولكن احدا لم ينتبه الى ان الولد الوسيم الفنان يغلى فى اعماقه . وانه قرر ان يأخذ بثأر أبيه .

وذات صباح والشمس تشرق فى العلالى ، وصهد شهر حزيران يشوى كل شيء حتى الشجر والحجر ! كان عليه المفتون بنفسه ، الائق بياسه ، يتمشى افرنجى على جسر ترعة العريزية ، وقد تلفح بشاله ، ووضع بندقيته على كتفه ، وقد امتد طرفا شاربيه فى الفضاء ، عندئذ كان الولد السيد الحليوة يقف على جانب الطريق مستندا على شجرة ، وعندما اقترب عليه من سيد هتف به فى طيبة :

- كيف الحال ياسيد ، واقف وحدك ليه ع الجسر ، امال فىن امك ؟ ولم يرد سيد ولم يتكلم ، أطلق ستة عيارات من مسدس كان يخفيه فى ملبسه ، أصابت قلب عليه فسقط يتخبط فى بركة من دمه ! ولم يهرب سيد ، ولم يتحرك من مكانه ، بل وقف فوق الجثة ، ومسدسه فى يده ، وقدمه تغوص فى بركة دم عليه . وامام الشرطة اعترف سيد بقتل عليه . واتهمه بقتل والده ، وأضاف انه بعد أن مات والده بأسبوع واحد . حضر عليه الى المنزل للعزاء ، ورغم جو الحزن المخيم على البيت ، فقد حاول عليه مغازلة الزوجة - أم سيد - واحتضنها بالفعل امام سيد ، وهو واقف فى الركن ! ينظر ويتأمل ويرتحف بدنه كله . ولو كان معه

مسدس في تلك اللحظة ، لاطلقه على عليوه ، لو كان معه سكين حاد لغرزته في صدر عليوه ، ولكنه لم يكن يحمل معه شيئا . ولذلك اثر السكوت حتى تحين الفرصة !

وحكى سيد ، كيف حصل على المسدس ، وكيف قرر القضاء على عليوه ، وكيف تعقبه ، وكيف عرف خط سيره كل صباح ، وكيف انتظره ذلك الصباح على الجسر وعند الشجرة ، وكيف قتله ، وكيف اغرق حذاءه في دمه ! . وصارت قصة سيد وعليوه ، حديث الناس ، وأصبحت بابا ثابتا في الصحف ، ولأول مرة يلقي قاتل عطف الناس . فهذا الولد الوسيم الصغير ، ثار لدم ابيه ولعرض امه . وسرت العدوى من الناس الى القضاء فحكموا بحبسه لمدة عامين . واستراح سيد الحليوة ، وهو جالس في السيارة من المحكمة الى السجن ، وكانت هذه هي أول مرة في حياته يقع بصره فيها على سجن ، وأول مرة يختلط فيها بالمساجين ، ودق قلب سيد قلقا وخوفا . ولكن سجيننا ابيض اللون طويل القامة ، يزين فمه بأسنان ذهبية ، ضحك لسيد في طيبة . وربت عليه في حنان . وقال لسيد :

- ماتخافش ، السجن مش وحش زى ماانت فاهم . وانا خدامك وتحت أمرك . وعندما انتزع الحراس سيد وعزلوه باعتباره صغير السن ، وجديدا ايضا في عالم السجن اشار اليه الرجل الابيض الا يخاف ، فسيدبر له كل شيء في الغد . بدأ سيد الحليوة ليلته الأولى في السجن ، وحشروه حشرا في زنزانه (الايراد) مع مجموعة المساجين الجدد ، ولكن سيد لم ينم طول الليل ولم يغمض له جفن . فبعد ان اغلق السجنان الباب نشبت خلافات حادة بين بعض المساجين ، ودبت خناقة حامية بين ثلاثة منهم ، وارتفعت المطاوى في الجو ، ولعت السكاكين في الظلام . وسقط جرحى يعومون في بحر من الدماء . وصرخ سيد الحليوة طالبا النجدة ، ولكن لكمة جاءتته من الخلف افقدته القدرة على النطق .

وصوت الحارس جاء من الخارج يلعن سنسفيل أبوه ويأمره بالتزام الصمت ، وعندما فتخوا باب الزنزانه في الصباح ، اكتشف سيد ان كل ماجرى في الليل ، قد ولى مع الظلام ، واكتشف سيد في تلك اللحظة قانون السجن الابدى . ففي السجن ، ويل للظالم والمظلوم . والعقاب يتزل بالضارب والمضروب ، والاهانة من نصيب الشاكي قبل ان تكون من نصيبه المشكو في حقه ! وخاف سيد كما لم يخف من قبل ، بل هو خاف هذه المرة ، ولم يخف قبل ذلك قط !

بل انه عندما تربص لعليوه عند الشجرة واطلق عليه النار وقتله وغمس قدميه في دمه ، لم يشعر ابدا بالخوف ، ولم ترتعش عضلة واحدة في قلبه . . وشعر سيد الحليوة انه وحيد وانه ضائع وانه في حاجة الى حماية . لحظة من هذه اللحظات التي يشعر فيها المرء ان كل شيء قد ضاع وكل شيء قد انهار . . كغريق يجرفه

التيار ويده لاتقبض الا على الماء ، ولاتتشبث الا بالهواء .
فى تلك اللحظة هط عبده الابيض على سيد ومع عبده حلاوة طحينية وجبن
وعلبة سجاير . ولكن سيد الحليوة طلب من عبده الابيض طلبا واحدا لاغير ،
ان ينقده من زنزانة الايراد . ولما شرح له عبده ان المسألة عويصة . وانها تحتاج
الى مبالغ كبيرة . ابدى سيد استعداداه لدفع أى شىء ، مقابل الانتقال ، وامهله
عبده الى الغد ليدبر الامر ، ووعدته حيرا ورجاه ان يكتم الخبر !
وكنتم سيد الخمر عن الآخرين . وبات ليلته قابعا فى ركن الزنزانة ، وعندما
فتح الحارس الباب كان اول الخارجين وعندما التقى عبده الابيض واستفسر منه
عما تم بشأن النقل من زنزانة الايراد ، راح عبده يعدد له المتاعب التى تعترض
الموضوع ، والمصاعب التى تحول دون تحقيقه . كان سيد يسمع ذلك ووجهه
يزداد اصفرارا ، فأمله فى النقل قد تلاشى ، ورغبته فى النجاة من هذا المستنقع
الذى سقط فيه قد تبددت .

وهمس فى ضعف شديد . .

- يعنى مفيش فايداه ياعم عبده ؟

فأجاب عبده بنبرة صوت لاتنم عن شىء .

- كل عقده ولها حلال ياسيد .

- وامتى الحل ياعم عبده ؟

- بكرة ربنا يسهلها .

وظن سيد ان عبده يعنى كلمة بكره بحرفيتها . . ولكن . . بكرة هذا لم
يأت الا بعد اسبوعين . كان سيد قد انشوى على جمر النار . وما أغرب
هذا التكوين الغريب الفريد الذى اسمه انسان . يقتل سيد عليه ! وهو
على استعداد ليقتل الف رجل ! ولكنه لايحتمل الاقامة يوما واحدا فى
زنزانة الايراد ولكن ، ها هو الفرج اق على كل حال . وما هو عم عبده
يجمع متاع سيد فى كيس من القماش ، وعندما استوى سيد جالسا على
الارض فى زنزانة عم عبده ، اكتشف عمق الهوة بين زنزانة عم عبده
وزنزانة الايراد . هنا كل شىء مرتب وجميل حتى الجدران معلق عليها صور
لمشلات جميلات ، نهودى بارزة ، وارداهن متكورة ونظراتهن جريئة .
وذهل سيد عندما رأى فى زنزانة عبده مرتبة جيدة الصنع ، وقلة مياه
تجعل الماء أبرد من ليلالى الشتاء ، ووجد موقدا بأربع شعلات لانضاج
الطعام ، واعداد الشاى ، هل زنزانة عم عبده ، فى نفس السجن الذى
يضم زنزانة الايراد ؟ حتى الحراس عند عم عبده اكثر رقة واكثر أدبا .
وهم يتكلمون مع السجناء ، ويتسمون ايضا ، ويضحكون احيانا .

ولاحظ سيد الصغير ان الفروق هنا زالت ، فلا فرق بين السجنان والمسجون ، بل احيانا المسجون هو الاقوى ، وهو الاعز ، والسجان هو الضعيف وهو الاذل ، ولاحظ سيد أيضا ، انه في موعد وجبة الغذاء يجتمع المسجونون والسجناء ليس كل السجناء بالطبع ولكن بعضهم ، يجتمعون في زنزانة عم عبده ، يأكلون ويشربون الشاي ويدخنون السجائر ويروون النكات !

ولاحظ سيد الصغير أيضا ، ان السجنان اذا خرج من زنزانة عبده ، خلع الحزام ورسم على وجهه تكشيرة رهيبة ، وضرب بقية السجناء الذين يتلطمعون بجوار الجدران .

وارتاح سيد جدا للجو الجديد ، وللمأوى الجديد ، وادرك ان السجن ليس سيئا للغاية كما سمع من قبل ، وكما توهم هو نفسه خلال ايام العذاب التي عاشها في زنزانة الايراد ، وبدأ سيد يشعر بالاستقرار ، واخذ يعد الايام التي انصرفت ، والايام التي بقيت ، وصار له اصدقاء في السجن ، شبان صغار في مثل عمره ، فقد لاحظ سيد ان السجن يحتفظ بهذا النوع من الصبية ، ولكنهم ليسوا قتله ، انهم فقط لصوص ومجرمون صغار ، ولكنهم ظرفاء واصحاب نكتة حاضرة ، وتجربتهم في السجن تجعلهم اكثر جرأة من سيد على مواجهة المشاكل ، والخروج من المأزق . . واللف حول مواد اللائحة التي تمسك بخناق المسجونين .

ومرت شهور وسيد في السجن ينتظر من يزوره ولكن دون جدوى ، وجن جنون سيد ، فلا يمكن ان تتخلف امه عن زيارته الا لأمر رهيب ، وراحت الظنون تتقاذف سيد الصغير ، هل ماتت ؟ هل مرضت مرضا شديدا أفقدها عن القيام وعن السير وعن المجيء اليه ؟

انها لم تكن تحب في الحياة اكثر من سيد ، وهي التي أطلقت عليه اسم الخليوه ، فما الذي اخرها عن زيارة سيد ، وهو الذي قتل عليه حين مد يده ليتحسس جسدها المقدس النبيل !

وفضفض سيد بأحزانه وظنونه لعم عبده الابيض . واستمع عم عبده في هدوء وابتمس في هدوء ، وهز رأسه ونطق بالحكمة كلها .

- يا بني المسجون رحته وحشة ، ماحدش عاوز يشوفه .

وقال سيد الخليوة :

- بس أنا يا عم عبده ، مش مسجون في حاجة عار من غير مؤاخلة ، وأنا

مسجون عشان الشرف . دنا قاتل وواخذ بتارى .

وهمهم عبده وهو يحرك الشاى فوق النار :

- كله بيتساوى ، المسجون مسجون ، ان شاء الله يكون مسجون فى ايه !
كانت هذه العبارة هى خلاصة حكمة عبده فى الحياة . فهو سجين معتاد التردد على السجون منذ ان كان فى عمر سيد . وهو ليس بقاتل ، وليس ببلص ، وليس بعشاش أو نصاب أو دجال أو نشال ، ولا يؤذى احدا ، ولا يضر احدا ، ولكنه تاجر معروف وله زبائن ، وتجارته من أغلى وأحلى السلع فى التاريخ ، لانها سلع تتحرك وتتكلم وتشكو وتضج وتن وترغب وتحفل وتحزن وتغضب وتهرب ، فبضاعته هى الانسان ، انه قواد شهير له فى عالم الليل باع طويل وهو مشهور ، أشهر ربما من بعض الوزراء ومن بعض الممثلين ، ولكن جهات الامن لا ترحم ، ومع ان رجال الامن انفسهم ليسوا فوق مستوى الشبهات ، فهم اصحاب مزاج ، وسار ليالى ، ورواد متعة ، وهم احيانا يلجأون لعبده ودائما عبده يلجى لهم طلباتهم . ولكن عندما تقع الفاس فى الرأس ، لا أحد فيهم يعرفه ، ولا أحد منهم يقدم له مساعدة ، بل انهم فى كل الحالات يعاملونه وكأن أعينهم لم تقع عليه من قبل .

- وتعرف يابنى ياسيد ، اللى مامعش قرش بتاعه هوه ، ما يسواش قرش ، خدها حكمة من عمك عبده . وما فيش حد ينفع حد ، لا تقوللى امك ولا أبوك . مفيش غير عينك وعافيتك .

- طيب والعمل ياعم عبده ؟

- انت عليك فلوس كثير ياسيد ولازم تدبر نفسك . وساد الصمت بينهما فترة ، قطعه سيد بسؤال حائر .

- وأدبر نفسى ازاي ياعم عبده ؟

وقال عبده على الفور :

- تفتح غحك ياسيد ، فتح غحك وانت تأكل ملين .

انقلبت احوال سيد الحليوه بين يوم وليلة . هاهو الآن يبدو وسط حثالة المساجين ، كأنه طالب اين ذوات فى مدرسة داخلية . البدلة مضبوطة وعلى مقاسه واخر قيافة قام بتفصيلها فاروق الشامى مقصداً السجن . وهو ترزى كان له صبيت عظيم فى مصر كلها . وكان ترزى البشوات والامراء والاعيان واصحاب الطين . ولكن الشيطان الذى ركب رأسه ،

وحرضه على تهريب المخدرات ، اطاح به من فوق عرشه والقى به في السجون خمسة عشر عاما وهو الآن يعيش في سجن القناطر يقضى الايام الاخيرة من العقوبة ، رئيسا لورشة التزوية . ومتخصص في تفصيل بدل اليه مدير مصلحة السجون واليه الوكيل واليه مأمور السجن وحضرات الضباط ، بل ان نشاطه امتد ايضا الى البهوات أصدقاء مدير المصلحة . ووكلاء المصلحة والمأمور .

وهو بالرغم من كونه اعظم ترزى عرفته القاهرة في فترة من الفترات ، الا ان اجره لم يزد عن خمسة جنيهات للبدلة الواحدة التي يقوم بتفصيلها داخل السجن ، اما اليه مدير المصلحة . فهو لا يدفع شيئا . لأن اليه المأمور دائما يقسم بأن يتولى هو الدفع بدلا من اليه المدير ، ولكنه لم يحدث ابدا ان دفع شيئا على الاطلاق ! وهو بالنسبة لسيد الخليوه فقد تقاضى نظير تفصيل البدلة خمسين علبه سجائر وهى بعملة السجن تساوى عشرة جنيهات . دفعها عبده الابيض راضيا .

وعندما رآها عبده الابيض على جسم سيد الخليوه ، شهق من شدة الاعجاب ، فالولد الوسيم تحول في البدلة الجيدة الى شيء أشبه بالممثلين . وفي قدم سيد حذاء أبيض ، ومن جيبه يطل منديل حريري هفهاف ، وعلى رأسه طاقية لها حافة تقيه حرارة الشمس ، واستطاع عبده بتفؤده أن يدرج اسم سيد في قائمة المرضى الذين يصرف لهم غذاء خاص . وهو غذاء مكون من بيض وحليب وليمون وشاي وخضراوات طازجة . وهو غذاء مخصص للمرضى ، ولكن المرضى لم يحصلوا عليه قط . ومن يريد ان يحصل على هذا الغذاء الطيب عليه ان يدفع مرتبا شهريا للدكتور لويس طبيب السجن . وهو رجل قبيح الخلقة قبيح التكوين .

الذى يراه من بعيد يتصوره امرأة حامل في شهرها الاخير ، وهو يعيش في سكن خاص ملحق بالسجن . ومتزوج من سيدة تصغره بعشرين عاما ثرية ووالدها عملة في قرى أسيوط بالصعيد .

وهو لم ينتجب لانه فاقد القدرة على الانجاب ، ورغم انه طبيب ، ومفروض فيه انه ملاك الرحمة داخل بيت العذاب ، الا ان المساجين الفقراء يخشونه اكثر مما يخشون الحراس . وويل للمسجون المريض اذا لم يدفع للدكتور لويس . سيضربه لويس حتى يغشى عليه . ثم يكتب في

تقريره انه متمارض ، فتجلده الادارة أو تضعه في زنزانة التأديب . وكل شيء عند الدكتور لويس بالثمن . الدواء له ثمن . والاجازة من العمل لها ثمن ، والغذاء الطبي له ثمن . والاقامة في مستشفى السجن لها ثمن . وهكذا حصل سيد الحليوة على الغذاء الطبي . ولم تمض ايام حتى أفاد الغذاء الجليد ، فتورد وجه سيد الحليوة ، فصار احلى مما كان ، ولكن سيد الحليوة كان يشغل باله سؤال عذبه طويلا : اين ذهبت امه ؟ وأرسل المراسيل ، وبعث بالوفود ، ولكن لا حس ولاخبر ، لقد أصبح دينه ثقيلا لعم عبده الابيض ، ولو جاءت امه تزوره فسيسد دينه عن آخره . . اذا انه لأول مرة ، يحس ان الدين اكثر قيда على حرية الانسان ، من قضبان السجن نفسه ! غير أن تفكيره في الدين ، وضيقه به ، لم يمنعه من مواصلة الحياة على هذا النحو ، بل لقد أصبح من العسير عليه ان يعود مرة اخرى الى زنزانة الايراد ، أو يصعد الدور الرابع ، حيث المتسولون والذين لامورد لهم . وعم عبده الابيض رجل طيب ، وهو يدفع عن طيب خاطر ، ربما لانه صاحب اولاد ، ربما كان احد اولاده يشبه سيد ! وربما لان سيد نفسه صاحب قلب طيب ، ولذلك وفقه الله في معرفة اولاد الحلال !

ولكن ذات صباح حدث شيء غريب لم يكن يتوقعه سيد . كان يجلس في زنزانة عم عبده ، عندما جاء سجين آخر ، ولكن يبدو من منظره وهيبته انه من الاثرياء . كان يرتدى بدلة لونها في لون ملابس السجن ولكن قماشها افخر من قماش بدلة المأمور . ويدخن سجائر امريكانى فاخرة ، واخرج قطعة خشيش من صنف جيد القى بها بين يدي عم عبده . وراح الاثنان يدخان سجائر الخشيش ، والرجل يجلس النظرات الى سيد الحليوة . وفجأة قال بدون مناسبة .

- انت سيد الحليوة ؟

وقال سيد

- أيوه . .

ورد الرجل في هدوء

- اسمك مضبوط ، انت حليوه .بصحيح .

وخيم الصمت لحظة على الجميع ، قبل أن يستطرد الرجل قائلا :

- أنا سمعت حكايتك ، وأنا مبسوط منك ، واد جدع ، قتلت عليوه ربنا

يحمحه في نار جهنم ، كان راجل شر ، وانا مبسوط منك

ثم دس الرجل يده في جيبه ، واخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات ، وقال لسيد الحليوه :

- خذ دى عشانك .

وأبدى سيد رفضا في البداية ، ولكن عم عبده الابيض خرصه على قبولها

- خذ من عمك خضير ماتكسفوش .

وعندما مد سيد يده واخذ الورقة . قال عم عبده الابيض :
- دا عمك خضير راجل سيدنا وتاج رأسنا وعم الناس الى انت شايفها دى كلها . ولا فيش حد هنا يرفض له طلب ، حتى اليه المأمور بتنفيذ طلباته .

تصدق بالله .

هكذا قال عم عبده وهو يعتدل في جلسته .
- فيه ناس هنا في السجن ، تتمنى تقعد ولو خمس دقائق مع المعلم خضير .

وعلق المعلم خضير وهو ينهض ..

- ملعون أبوهم جميعا أولاد كلب . لم نر مساجين مثل هؤلاء من قبل ، حتى السجنون باظت مثل كل شيء .
وقال عم عبده الابيض ..

- مساجين زمان كانوا مساجين بحق وحقيق ، ومساجين اليوم زبالة .
ولم يعلق المعلم خضير بشيء . ولكنه عندما أصبح على عتبة باب الزنزانة ، التفت ، وقال لسيد الحليوة :
- ابقى فوت على في الزنزانة كمان شويه ياسيد . عندي بدلة حلوه تنفعك .

ولم يرد سيد ، ولكن عم عبده هو الذى رد :
- كمان شويه هيكون عندك يامعلم . وبنا يخليك ويطول في عمرك .
عندما صعد سيد الحليوه على السلم الحديدى الدور الثانى حيث يقيم المعلم خضير في زنزانة بالدور الثانى ، شعر ان عيون المساجين تلتهمه ، واحسن بأن همس المساجين يدور كله حوله ويشأنه ، كان الدور الثانى في السجن انظف الادوار واكثرها سكونا .
ففى هذا الدور يقيم المسجونون السياسيون ، وهم اقل جلبة من

الآخرين واكثر نظافة ، ولكن الحراسة في الدور أشد وطأة وأكثر صرامة .
ولما كانت بعض الزنازين غير مسكونة في الدور ، فإن هذه يتم توزيعها
على بعض المساجين المجرمين . ولما كان السكن في الدور الثاني ميزة ، فقد
أصبحت هذه الزنازين وقفا على تجار المخدرات . انهم أكثر الناس نفوذا في
السجن ، لانهم أكثرهم ثراء . وأعزهم مقاما لدى الادارة والحراس .
كانت زنزانة المعلم خضير تقع في طرف الدهليز الايسر . وقبل ان
يصل اليها سيد الحليوه ، انشقت الارض عن الشاويش سيف حارس
الدور ، وهو أضخم حراس السجن جثة ، وأكثرهم عبوسا ، وأشدهم
وطأة على الفقراء من المساجين .

وخاف سيد الحليوه من الشاويش سيف وارتعد بدنه كله ، وفكر في
الرجوع من حيث جاء . ولكن صوت الشاويش سيد الذي اصبح رقيقا
كصوت ملاك بادره قائلا . .

- انت جيت ياسيد . دا المعلم في انتظارك ، اتفضل . وتقدم بخطوات
عسكرية نحو الزنزانة . . ووقف عند الباب وطرقة بأدب جم . وعندما
جاء صوت من الداخل يسأل عن الطارق ، قال الشاويش سيف :
- خدامك الشاويش سيف يامعلم ، وسى سيد الحليوه وصل . عندئذ
انفتح باب الزنزانة ، وظهر منها رجل كالوحش ، أضخم بكثير من
الشاويش سيف ، عضلاته بارزة كأنها كتل حجارة مركبة ذراعين ، ورأسه
محلوق بالموس . ونظر للشاويش سيف شذرا ثم ابتسم لسيد قبل ان يدعوه
للدخول .

ما أغرب زنزانة المعلم خضير وما أشبهها بغرفة في بيت احد الاثرياء .
مرتبة لم تقع عيناه على أجمل منها . وخزانة لحفظ الملابس مصنوعة في ورشة
النجارة داخل السجن ، ورفوف عليها عرايس ولعب وتمائيل برونزية
وصورة للمعلم خضير معلقة على الجدار . وأطباق صيني وفناجين شاي ،
وبدل السجن معلقة على شاعات . ومائدة طعام قصيرة وصغيرة تتوسط
الزنزانة ، وعليها باقة ورد انتقته بعناية يد خبير من حداث السجن !
والمعلم خضير يتمدد بملايسه الداخلية فوق المرتبة يدخن سجائر
الحشيش ، وفي يده مروحة صغيرة ، تعمل بالبطارية ، وبدا عليه انه
مستطول وآخر انسجام ! وأشار لسيد بيده أن يجلس ، وأفسح له مكانا
بجواره ، وراح الرجل ذو العضلات يعد الشاي للمعلم خضير وضيئه

الصغير . وبعد ان انتهى من اعداده ، قدم لها الشاى فى فناجين نظيفة مزينة بالورد ، ثم استوى واقفا وقال للمعلم :
- أى خدمة يامعلم ؟

وقال المعلم وهو يرتشف الشاى بصوت مسموع :

- خليك واقف بره ، وما تخلّيش حد يدخل .

انزاح المعلم خضير من مكانه وتراجع للخلف حتى التصق ظهره بالحائط ، وجلس سيد الحليوة على حافة المرتبة مرتبكا . وتشاغل المعلم خضير فى لف السجاير المحشوة بالحشيش . وعندما انتهى من لفها ، مد يده بسيجارة لسيد ، وقال وهو يشعلها له :
- انت مرتبك ليه ؟ امال لو ماكتتش قاتل . شدم السيجارة عشان تتكيف .

جذب سيد الحليوة انفاسا متلاحقة ، وتصاعدت حلقات الدخان فى جو الزنزانة ، وربت المعلم خضير على ورك سيد الحليوة وقال وهو يضحك ضحكة عالية :

- القاتل ده بيبقى قلبه جامد ، لكن دا انت خرع قوى . وابتسم سيد الحليوة ولم ينطق ، فجذبته المعلم خضير ناحيته ، وقبله قبلة خاطفة على وجه ، ونزع طاقيته من فوق رأسه . وراح يعبث بأصابعه فى شعره ، ولم يدرك سيد الحليوة قصد المعلم خضير فى البداية ، ظن انه رجل طيب ، وانه يفعل خيرا لوجه الله . لقد اعطاه عشرة جنيهاات ، ولف له سجاير مخلوطة . وقدم له الشاى ، وسيعطيه بدلة جديدة . ولكن الشك لعب فى صدر سيد عندما قدم المعلم خضير يده واحاط بها خصر سيد ، ثم ضمه اليه ضمة قوية ، وقبله مرة اخرى . وقال له فى لهجة امرة :

- قوم ياسيد اقلع هدومك ، الدنيا حر .

واعتذر سيد لانه لايشعر بالحر ، وقال المعلم وقد تبدلت قسماات وجهه :

- طب اقلع عشان تقيس البدلة الجديدة . ورد سيد بأنه سيجرب البدلة الجديدة فى ورشة التريزة ، حتى اذا احتاجت لشيء من القياافة أعدها فاروق على الفور . عندئذ هوت يد المعلم خضير على وجه سيد فارتمى من شدة الضربة على الارض ، وقبل ان يفيق سيد من هول الصدمة ، عاجله المعلم خضير بكف اخر وكف ثالث ، وصرخ سيد الحليوة طلبا النجدة ،

ولكن احدا لم ينجده ، حتى باب الزنزانة ظل مغلقا عليه وعلى المعلم .
وهتف سيد فى توسل :
- انا فى عرضك يامعلم . وركله المعلم بقدمه ركلة اطاحت بسيد عند الباب ، ثم هتف على الوحش الرابض عند الباب فى الخارج .
- 'افتح للكلب دا خليه يمشى ..
عندما خرج سيد الحليوة وجد جموع المساجين وقد جذبته صرخاته ،
يقفون فى حلقة فى اخر الممر ، وعندما اقترب منهم سيد ، تصاعدت ضحكاتهم وسخرياتهم فى الجو .. وهتف مسجون عابث :
- صباحية مباركة ، يابخت صاحب النصيب .
واسرع سيد مبتعدا ، وهبط السلم باقصى مايستطيع ، وعندما اصبح فى الفناء ، غاب فى زحام المساجين .
ما تعس الزمن ، وما أقسى غدره ، لقد تبدلت احوال سيد بعد هذه الحادثة فأصبح السجن غير السجن ، والناس غير الناس ، حتى عبده الابيض كشر عن انيابه ، وانقلب وحشا من الوحوش .
وقال عبده الابيض وهو يحاور سيد الحليوة ..
- ايه الحكاية والرواية .. ماتفهمنى ، عاوز تعيش شحات فى السجن ، واللى يسوى واللى مايسواش يدريك على قفاك . والا عاوز تأكل لقمة نظيفة ، وتلبس هدمة نظيفة ، وتصرف قرش نظيف ، وأجاب سيد من خلال الدموع التى انهمرت على خده .
- أنا عارف ان على ليك فلوس ، لكن أنا هادفعها ياعم عبده ..
- وهتدفعها منين بقى ان شاء الله . أهلك بره ماشاء الله قوى . بهزات كلهم ومستوظفين ، مش محمد ربنا ان حظك كويس ، والراجل الطيب خضير قلبه انفتح لك . طب وربنى واحد كده فى السجن، مايتمناش نظرة رضا من خضير؟ وتمتم سيد فى كلمات متقطعة ..
- أنا مش بتاع الحاجات دى ياعم عبده .
وقال عبده الابيض .
- انت حر ، عقلك فى راسك تعرف خلاصك .. بس البدلة دى بقى مش بتاعتك ، والعشرة جنية الى ادهالك المعلم خضير مش لك ، وانت على كيفك ، مادام انت وش فقر ، خليك فى الفقر ! وانزوى سيد الحليوة بعد ان تجرد من الهدوم والفلوس فى الزنزانة .

وعندما فكر مرة في الخروج الى الفناء عكمه الشاويش سيف من قفاه ،
وضربه كفا القى به على الأرض يتلوى من الألم ، وهاجمه حتى اراذل
المساجين . وفي كل خطوة كان يهجم عليه مسجون قبيح المنظر تنتن
الرائحة ، يحتضنه ويقبله .

حتى المسجون المجنون الذى كان مجذوبا من مجاذيب السجن من قبل ،
هجم عليه ذات مرة ، واحتضنه بقوة ، ثم وقف يهتف من شدة السرور .
- مدد ياخضر ، مدد ..

وهان كل شيء على سيد الحليوه . استعذب السجن الانفرادى ،
واستعذب الجوع ، حتى السجائر التى يعشقها ، لم تعد تروق له ، ولكنه
ذات صباح دخل عليه بدوى ، وهو مسجون محكوم عليه بالمؤبد ، وجلس
على باب الزنزانة يتحدث مع سيد ويدخن ، ثم مد له يده بالسيجارة التى
معه ، ولكن سيد اعتذر . فألح عليه ، فتناول سيد السيجارة واخذ نفسا
عميقا قبل ان يردها اليه ،

وارتسمت ابتسامة عريضة على شفة بدوى . وزحف على الأرض حتى
لامس جسمه جسم سيد ، ثم طوقه بقوة وراح يقبله كالمجنون ، وصرخ
سيد صرخات مدوية ، وقاوم سيد بشدة ، وبدوى يحاول طرحه على
وجهه .

وعندما اقتحم المساجين الزنزانة ، كان سيد على وشك الاختناق ،
وقاد الشاويش سيف سيد وبدوى معا الى الادارة ، وامام الضابط روى
سيد القصة ، وانكر بدوى رواية سيد ، وعندما جاء دور الشاويش
سيف ، ذكر انه رأى بدوى فى زنزانة سيد ، واكد ان بدوى كان خارج
العبر عندما صرخ سيد مستغيثا ، وهكذا وقع سيد تحت طائلة العقاب ،
وأمر الضابط بحبسه فى التأديب لمدة اسبوع .

ومرت الايام على سيد فى التأديب ، النهار كالليل ، فالزنزانة تسبح
دائما فى الظلام ، والطعام تأتف الكلاب من تناوله . والرائحة تنتن
كريمة ، كان قبرا اثريا قد انفجحت فجأة داخل عتبر التأديب والسكون شامل
ورهيب وعميق حتى خيل لسيد فى وقت من الاوقات انه ميت ، وان
الزنازين ماهى الامقابر ، مدفون بها بعض الاحياء ، نتيجة خطأ فى
تشخيص الطبيب .

ولكن .. ما أعظم الراحة التى يحسها سيد ، راحة لم يشعر بها من

قبل ، حتى وهو يعيش مع أمه وأبيه في سقارة . وعندما تذكر سقارة شعر
برائحة الحقول تملأ خياشيمه ، وتذكر ترعة الذوات التي تخترق القرية ،
متدفقة بالمياه مرة ، راكدة اغلب الايام . وطاف بخياله نخيل سقارة
الشهير المثلث بالبلح الاحمر ، كأن نارا حامية شبت فجأة في اعلى
النخيل ، وارتسمت ابتسامة على شفثيه الجافتين عندما تذكر جمالات .
كانت طفلة ولكن كان لها سلوك النساء . وكانت جميلة ، عيناها
ضاحكتان ، ووجهها باسم ، وشعرها الصغير يرفرف مع الهواء كالطبر
الجميل ، يالها من ايام بهيجة ولت الى غير رجعة ، ودنيا ذهبت ولن
تعود . .

ووافق سيد من احلامه على صوت يناديه ونخيل لسيد في البداية ان
الشاويش جاء بالطعام . وفرك عينيه وأصاخ السمع جيدا ، ولكنه اكتشف
ان الصوت ليس صوت الشاويش ، وتساءل سيد عن يكون الهاتف ،
وجاءه الجواب « انا عبدالرحيم ياسيد » وتذكر سيد ان عبدالرحيم
المسجون المتهم بغش الخبز ، كان قد طلع افراجا منذ شهر ، وهو
صاحب نخبز في قرية على بعد مرمى حجر من سقارة ، ويبدو ان
عبدالرحيم قد عاد من جديد متهما بغش الخبز ، فهو لا يكاد يخرج حتى
يعود . وهب كالملسوع ، وقال لعبدالرحيم . . ايه الاخبار يا عم
عبدالرحيم ، أمى ازياها . . وقال عبدالرحيم . . امك اتجوزت ياسيد
وسابت البلد وماحدث عارف راحت فين »

وخيم الصمت على التأديب من جديد ، ثم هتف سيد بصوت كأنه
صادر عن المقابر « واتجوزت مين ؟ » واجاب عبدالرحيم « الولد عنتر الى
كان ماشى مع عليوه الله يجحمه » ! .

ولا أحد يعلم ما الذى جرى لسيد طول الليل ، ولكن الذين يجاورونه
في زنازين التأديب ، قالوا انه لم يكف عن البكاء . ولكنه لم يكن بكاء
مألوف ، ولكنه كان يصرخ ككلب داسته سيارة نقل على الطريق . وفي
الصباح نادى سيد على شاويش التأديب ، وقال له فى استعطاف شديد . .
يا عم احمد . . والنبي تقول لعم عبده الابيض سيد عاوزك ، قوله أنا
خداه ، قوله خلاص ، عبده هيفتح غحه ، هيفتحه ع الآخر ! .



الفصل الرابع

المسكيات

دخلت مستشفى السجن أول مرة ، زكمت انفى رائحة غريبة ، ظننتها في البداية رائحة مرض او دواء ، ولكنى اكتشفت بعد فترة ان رائحة منبعثة من طبخ يغلى في إناء فوق النار ، وقد وقف يراقبها مسجون يبدو انه كان طباحا من قبل ان يأتى الى السجن ! ثم اكتشفت وانا جالس مع الدكتور اراقب منظر المستشفى الذى انقلب الى مطبخ ، ان المرضى الذين يقيمون في المستشفى يتمتعون بصحة جيدة ، ويرتدون ملابس فاخرة ، ولديهم كل فاكهة الموسم .

وان لهم على الطبيب دالة ، بل اكثر من ذلك لهم على الطبيب سلطة ! دخل احدهم ونظر شذرا الى الطبيب وقال له في جفاء :

- انت لسه قاعد؟

وابتسم الدكتور ميشيل في ادب مصطنع وقال في صوت مرتعش :

- أنا خارج بعد لحظة ، والحاجات المطلوبة ستحضر لكم بعد قليل .

وعندما رأى علامات الدهشة على وجهى ، قال وعيناه تفضحان كذبه :

- انت مت عارفه مين ؟

وعندما هزرت رأسى بالنفى ، أجاب :

- دا يبقى ابن عم البية مدير مصلحة السجون ، مسجون ستين ، والبيه المدير كل عدة دقائق يتصل بأمور السجن يسأل عن اخباره وكان الدكتور ميشيل كاذبا فى ادعائه . فهذا الرجل كان مدير فرع لاحد البنوك فى القاهرة .

ثم خطر له فى لحظة تجلى ان يهرب مبلغا من المال من اجل تثبيت المكاسب الشعبية ، وتدعيم المسيرة الثورية ، فقد كان على علاقة وطيدة باحد الضباط الكبار فى مكتب المشير ! ولم يقدر للبيه مدير البنك ان ينام فى الزنزانة يوما واحدا على الاطلاق . دخل من باب السجن الى المستشفى مقابل مرتب شهرى قدره خمسون جنيها للدكتور ميشيل . الذى اثبت على تذكرته الطيبة انه مريض بالسكر ويعانى من احتباس فى البول ، وضعف عام ، واستباه فى درن رئوى . كان كل من فى السجن يعلم ان السر معروف للجميع ، ومع ذلك كان لايكف عن ترديد قصة قرابة المسجون اياه للبيه مدير المصلحة !

ومنذ ذلك الحين بدأت اكتشف سر مستشفى السجن .. المستشفى يتكون من عشرين ، كل عنبر يحتوى على عشرين سريرا ، وليس فيها من مواصفات المستشفى الا الاسم ! فالارضية متأكلة ، والسرائير منظرها يسد النفس ، والادوية تسبب المرض ولا تشفيه ، والمرضون كانوا فى الاصل حراسا ، عجزوا عن اداء مهمة الحراسة فتحولوا الى « ملائكة » رحمة ، والطبيب اعود بالله .. كتلة من الشحم واللحم . كل مافيه منبعج ومنتفخ . تزوج من فتاة تصغره بعشرين عاما ، وثرية ومن عائلة معروفة ، ثم اصيب فجأة بضعف عام ، جعله شديد النهم لجمع المال . ولحظة مد الطبيب يده ، ظلت مبسوطة على الدوام . يرتشى ابتداء من السباحة والى المرتب الشهري من المسجونين السان ! ويطلب كل صباح كشف الزيارات ليلقى نظرة عليه ، ليتسول غدائه من المعلمين الكبار الذين اصابهم الدور فى الزيارة ، وكان يؤثر بعض الاطعمة فيطلبها بنفسه بالتليفون من اقارب المسجونين . وكانت طلباته تبدأ بالدجاج واللحم وتنتهى بالقلفل الاسود !

ولما كانت المستشفى مكونة من عشرين ، فقد خصص الطبيب عنبرا للمرضى المشرفين على الهلاك ، وخصص العنبر الاخر للمسجونين السان ، من يدفع يقضى كل المدة بالمستشفى . ومن يتوقف مرة واحدة

يتردد شر طردة ! ورغم محاولات عديدة لدخول المستشفى الا انني لم افلح . فقد كانت مسألة دخول المستشفى - كما الحال مع المسجونين السياسيين - لا بد ان تحظى بموافقة الجهات العليا ! .. ولكنني تمكنت من دخول المستشفى قبل شهرين فقط من انتهاء مدة سجنى ، فقد طلبت في خطاب رسمى تحويلى الى مستشفى القصر العينى ، فسمحوا لى بدخول مستشفى السجن .

وبالرغم من قذارة المستشفى وبؤسها ، فقد شعرت بأننى خرجت من جوف الكهف الى حيث النور والهواء ! فعندما يغلق السجن ابوابه ، وتهدأ الحركة تماما ، تدب الحياة فى المستشفى وتصبح مثل خلية نحل ! كان سربرى يحتل الركن الايمن عند الباب ، وكنت قد اويت الى الفراش بعد الظهر واغفيت فترة ، واستيقظت على ضجة المستشفى ، وخيل الى فى البداية ان هناك تفتيشا للمرضى ، ولكننى فوجئت ببعض المساجين يوقدون نارا ويطهون لحما ويهيشون طبقا من السلطنة الخضراء . ويغسلون فاكهة ! والبعض الاخر ينفخ النار فى كمية من الفحم ويعدون « جوزة » وبعض المعسل ! وتصورت اننى فى غرزة حشيش ولست فى مستشفى داخل اسوار سجن .

وفجأة وقع بصرى على رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ، له لحية تضفى عليه وقارا شديدا ، وترسم مع شيخوخته الجلييلة صورة للرجل الطيب الذى أوقعه سوء حظه النحس فى هذا المصير !

كان الرجل يجلس على السرير ، يعبث بعجات مسبحة ثمينة . وبدا لى من احترامات الجميع المبدولة بلا حساب للرجل الكبير ، انه اعظم شخصية فى المستشفى وانه صاحب الامر والنهى فى هذا المكان ، وعندما التقت نظراتنا القى على نحية المساء . وقال بصوت خشن (مراجب ياسعادة البية ، انت نورت المستشفى) . ثم امر لى بالشأى ، فجاء احد المسجونين بكوب الشأى على عجل . ثم دعانى للعشاء على مائدته احتفالا بقدومى للمستشفى . وقبل ان يتهى العشاء ، قام الرجل وصلى صلاة المغرب ثم العشاء ، ثم جلس طويلا بعد صلاته يتهل الى الله بصوت خفيض ويتلو ادعية كثيرة . وعندما جلسنا نشرب الشأى بعد عشاء دسم فاخر يندر وجود مثله فى مثل هذا المكان ! جلس الرجل يحدثنى فى ود شديد عن حياته خارج السجن .

فهو معلم كبير من تجار المخدرات فى حى البطلية . اسمه اشهر من اسم وزير الداخلية ، الحاج سعد المسلكاى ، وهو يتاجر فى الافيون

ولايَ تاجر في الحشيش . وقد اُقتنى ثروة طائلة من تجارة الافيون ، ولديه عدة عمارات فاخرة على شاطئ النيل ، واسطول من سيارات التاكسي ، وأموال سائلة بلا حساب ! ولديه عدة دكاكين لبيع الدخان والسجائر ، ذرا للرماد في العيون ! وهو يدفع مرتبات سخية لرجال الأمن المكلفين بمكافحة المخدرات . وبالرغم من ذلك فهم يقبضون عليه احيانا ، ولكنهم يرتكبون اخطاء فاحشة في اجراءات القبض عليه . تجعل من السهل على أى محام ضليع في القانون ان يخرج من المحكمة وفي يده الحاج سعد المسلكاتى ، ولذلك لم يدخل السجن قط ، رغم انه شيخ تاجر الافيون منذ عشرات السنين !

ولكن الضربة جاءت هذه المرة من حيث لم يحتسب ! كان جالسا بعيدا عن البطلية في منزل تاجر مخدرات صديق في حى المطرية . وكان ساهرا مع شلة من الاصدقاء يدخنون الحشيش ويروون النكات . عندما داهمتهم قوة من الشرطة وامسكت بهم متلبسين بتدخين الحشيش ! وعند تفتيشهم عثروا مع المعلم سعد المسلكاتى على قطعة حشيش تزن نصف كيلو . قرر هو أنها للمزاج ، وقالت النيابة انها للاتجار . ولما كانت الكمية بسيطة فقد اكتفت المحكمة بحبسه لمدة سنتين . . سيقضى منها ثمانية عشر شهرا ثم يغادر السجن ، لانه كما تشهد بذلك كل التقارير ، حسن السير والسلوك !

وسألنى المعلم سعد وهو يشفط نفسا عميقا من المعسل المغموس بالحشيش :

- والبيه كان يشتغل ايه في الحكومة ؟

- صحفى ..

- آه .. جرنالجى يعنى

وعندما اجبته بالايجاب ، جذب عدة انفاس عميقة متلاحقة ثم قال فى هدوء وفى ثقة :

- أقولك بصراحة .. كلهم حشاشين ..

وعندما سألته عن يقصد ، أجاب بهدوء :

- الجرانالجية ، مش همه بس ، وكمان بتوع النيابة والبيه مأمور السجن والضباط ، كلهم حشاشين . الحكومة كلها بتحشش يافندى ، ومش عارف بيمسكونا ليه ؟ ..

وراح المعلم المسلكاتي يروي قصصا مثيرة عن ضباط كبار كانوا يقبضون مرتباتهم من المعلم اول كل شهر ، وعن أشخاص مسنودين كانوا يسهلون عملية تهريب المخدرات لقاء الاجر ثم قال يؤكد كلامه :
- طب بتخش ازاي المخدرات تعرف تقوللى ، عفاريت زرق بيدخلوها البلد؟ ثم ضحك ضحكة ناشفة متقطعة قبل ان يستطرد :
- ماعفريت الا ابن ادم .

وفجأة حدثت صجة عند الباب ، ومفتاح ضخم يدور فى القفل الاكثر ضخامة . ثم انفتح الباب على مصراعيه وفوجئت بالضابط النوبتجى النقيب الدسوقى يقف بلحمه وشحمه فوق رؤوسنا ، والفحم والعم ، والجوزة شغالة ورائحة الحشيش تعبق فى جو المستشفى . . واحسست بقلبي يغوص حتى قدمي ، وجف ريقى ، وجف دمي ايضا ، وفقدت القدرة على النطق ، وظلمت جالسا مكاني ابحتق مذهولا فى الضابط ، لاننى فقدت ايضا القدرة على القيام . .

خيل الى لحظة رأيت الضابط الدسوقى يدخل علينا انه ربما كان الموقف كله كميننا اعدوه باحكام ، وهأنذا واقع فى الكمين ومتلبس . واذا كان موعده الافراج عني فى قضية سياسية سيحل بعد اسابيع ، فاني حتما سأواصل السجن ولكن فى قضية مخدرات !
وبدت علامات الارتباك على وجه الضابط الدسوقى ، ووقف حائرا لايدري ماذا يفعل ، ومن خلفه حارس الليل وقد أمسك بمجموعة مفاتيح السجن فى يده . وفجأة وجه الضابط حديثه الى وقال وهو مندهش :
- هو سعادتك هنا ؟

سعادتي ؟ طريقة ! هل يلعب الضابط بأعصابي ؟ هل يسخر مني ؟ ثم قال على الفور :

- أنا لما عرفت ان سعادتك هنا جيت أمسى عليك . وتدخل المعلم المسلكاتي الذى كان الارتباك يسيطر عليه :

- ماتبطل أمور الأرنطة دى بقى ، ما تعقد آمال ، اليه منا وعلينا وآخر مزاج . وكأنا وجد الطابط الغريق طوق النجاة وتعلق به على الفور .
وأجاب وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه . .

- كده ، طيب مساء الخير . واتحنى ورائك بالجوزة . وشفط نفسا طويلا عميقا ، ثم أنفاسا قصيرة متلاحقة وقال وهو يخرج الدخان من أنفه فى خيط طويل متصل :

- ياسلام ، دا عنبر . . ثم جلس في هدوء بينما انحنى الشاويش العجوز على الجوزة يتناول نصيبه من الانفاس . وراح الضابط يبدى ارتياحه الشديد لوجودى في المستشفى . فهنا الجو حرية أكثر ، ومزاج أكثر ، وهى على اية حال فترة لازمة استعدادا للافراج . وعندما عزم المعلم المسلكاتى على الضابط ان يتعشى رفض بشدة . وعلل اعتذاره بأنه تناول العشاء في فرح احد الاصدقاء قبل أن يحضر الى السجن مباشرة . وعندما علق المعلم المسلكاتى :

- يا بختك يا عم . بتحضر افراج .

راح الضابط يشرح الاسباب التى دعت لحضور الفرح فهو مقبل على الاحتفال بعقد قران كريمته الكبرى ، ولذلك حضر الفرح ليتفق مع المطرب رشدى على احياء الفرح . ولكن الاتفاق لم يعجبه ، فقد أصر المطرب على ان يقبض اجرا كبيرا ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة كما ترون . يحسدون الضباط . هكذا قال الضابط وهم في الحقيقة شحاتون . المطرب اصر على ان يتقاضى ثلاثمئة جنيه في ليلة واحدة وهى مرتب ستة شهور للضباط . ستة شهور من التعب والعرق والسهر والمسئولية . وآه من مسئولية الضباط . أقل هفوة قد تطيح بهم ، اصغر خطأ قد يودى به ، ربما حادث يقع بالقضاء والقدر يلقي به من شاطئ !

وراح الضابط يحكى لنا عن حادث وقع قضاء وقدرا عندما كان يعمل معاون نقطة في الصعيد . فقد امسك بلبص ، واثناء استجوابه انكر اللص وابدى عنادا شديدا واصرارا على الانكار رغم جميع الوسائل التى اتبعها معه . وفي موجة من موجات الضرب التى كان يكيلها له ، وقعت العصا على مقتل من جسده ، فسقط ميتا بلا حراك قضاء الله وقدره ! فلم يكن الضابط الدسوقي يقصد قتله ، ولكن عمره انتهى . . ولكل اجل كتاب ! ولكن النياية لا تحترم القضاء والقدر ودخل الضابط الدسوقي في دوامة سين وجيم ، وأوقف عن العمل فترة ، ثم اطاحوا به الى الوادى الجديد . وعندما اظهر الله برأته ، وامام محكمة الجنائيات ، نقلوه الى مصلحة السجنون ، حيث التعب أشد والمسئولية اكثر .

ونتم المعلم المسلكاتى بكلمات قليلة . .

- بس السجنون خيرها كثير وربك عالم بحالك يا ابو خليل . وقال الضابط في صوت حزين :

- والله خيرها ماهو على قد بلوتها ، ورد المعلم المسلكاتى :
 - أحمد ربنا ، دا ياما ضباط حاسدينك يا ابراهيم .
 - على ايه يا حصرة ؟ تكونش فاهم الناس كلها زيك يامعلم .
 طب سجن زى ده ، تعرف تقوللى فيه مين ؟
 وقال المسلكاتى وهو يحكم ربط العمامة فوق رأسه ..
 - أهو فيه برضه . خير ربنا كتير . المعلم على عيسى والمعلم أمل .
 والمعلم .. وقاطعه ابراهيم الدسوقى ، كأنما أدرك ان المعلم المسلكاتى
 يعرف كل شىء عما يدور خلف أسوار سجن القناطر . وقال الضابط وهو
 يحاول انتزاع عطف الحاضرين ؟
 - طب بدمتك حد يعمل الى انا باعمله يامعلم ؟ وأعطاه المعلم شهادة
 تفوق على الفور :
 - انت جدع يابو خليل .
 وعند هذا الحد توقف النقاش بين الجميع . وضرب الضابط يده فى
 جيبه فأخرج قطعة حشيش حجم فردة حذاء مقاس كبير .. وقال للمعلم
 وهو يطرحها بين يديه .
 - تمرين الاسبوع ده يامعلم والجماعة بيسلموا عليك . وقال المعلم
 المسلكاتى بعد ان شال الحشيش .
 - جماعة قلالات الأصل ، هيه دى الى قدروا عليها .
 وقال الضابط :
 - على فكرة ، هم جايينلك زيارة بكرة . وساد الصمت بيتنا من جديد .
 وانهمك الجميع فى شفط انفاس الجوزة ، وفى تذوق الصنف الجديد وارد
 الليلة . وعندما ابدت استحسانا بجودة الصنف الجديد . قال المعلم
 المسلكاتى :
 - دى حاجة جديدة اسمها ام سفينة ، نزلت قريب بس دهب ، أحسن
 من أم أكرم ، وخدنى لحنانك ، حاجة حلوة من غير مؤاخذه تشعل الدماغ
 من جوه النافوخ !
 كان الليل قد انتصف تقريبا ، وصوت الحراس يتصاعد ويتصاعد
 ويشتد صاخبا فى الظلام .
 وبعض المساجين يتشاجرون فى العنابر البعيدة وقد خفت الاضواء فى
 المستشفى ونام بعض النزلاء واستيقظ البعض الآخر . ونباح كلاب يأتى

الى مسامعنا من المزارع القريبة ، ونقيق ضفادع يختلط بصوت المياه المتدفقة في الرياح المنوفى ، وعسكري يتشعلق السور أراد ان يثبت نشاطه للضباط الذى دخل السجن يزقق بالصوت الحيانى واحد تمام . ثم يخف الصوت تدريجيا كلما انتقل العدد الى اثنين وثلاثة واربعة ، فاذا وصل الى رقم ١٤ ، خيل الى انه اضغاث احلام قديمة !

ورفت على شففى ابتسامة غريبة ، ما الذى جمعنا هنا وفي لحظة الزمان بالذات . وأى صحبة جميلة ، سياسى مسجون وتاجر مخدرات وبعض اللصوص والبلطجية وضابط نقيب وحارس عجوز ، والكل يشفط انفاسا معطرة ، وينفثون دخانا أزرق ، الشعب والسلطة في الذ تحالف ! المعارضة والحكومة في احلى قعدة !

تحالف قوى الشعب العامل في جلسة عمل وردية ، بينما الحراس يصرخون فوق الاسوار ! ترى لماذا يصرخون ؟ لتخويف المسجونين ؟ أم لطراد الخوف من انفسهم ؟ ومع ذلك فكل شيء تمام ! واحد تمام واثنين تمام ! وثلاثة تمام ! لاغلافة ولاخروج على النظام . والمعلم المسلكاتى يبدو وجهه هادئا كوجوه السلف الصالح . بينما يبدو الاجهاد الشديد على وجه الضابط الذى بدأ حياته كونستابلا ممتازا ، وظل يترقى حتى يصبح نقيبا في الثانية والخمسين ! وعندما دقت النظر في وجهه اكتشفت انه شرد بعيدا . من يدري ربما يفكر في الديون والهجوم . ربما يتمنى في اعماقه لو تبادل مع المعلم المسلكاتى مركزيهما في الحياة ! فما احلى ان يكون الانسان مسجوننا له كل هذا الهيلان ، وما أتعس ان يكون ضابطا يعانى من كل هذا الشقاء . وكأننا لاحظ المعلم المسلكاتى شرود الضابط فلنكره بلطف وصاح في حنان :

- هيه . رحى فين ياسعادة البيه .
- وأفاق الضابط من شروده فأجاب وعلى شففيه ابتسامة باردة
- ابدا ، انا معاك هنا . وتتم المعلم المسلكاتى :
- صل على سيدنا النبى .
- وهتف الجميع بالصلاة على سيدنا النبى ، وقال الضابط : كان نفسى تكون بره عشان تحضر معنا فرح البنت !
- كانت صفارة حارس الفناء تدوى في جوف الليل ، وكان الحارس العجوز هو أول من انتبه اليها فصاح بينه حضرة الضابط :

- دى اشارة خطر ياييه . وقال الضابط مستهزئا :
- حيكون خطر ايه يعنى ، اليهود هجما ، أسأل الحمار ده فى ايه ؟ وفتح
الحارس العجوز النافذة ، ونادى على حارس الفناء . وبعد أن لعن
ستسفىل أبوه ، سألته عن سبب الصفارة وأجاب العسكرى المذعور فى
الفناء .

- مسجون مات يافندى
وقال الحارس العجوز
- يعنى دكتور والا الطبيب الشرعى انت . شفته ميت
- احد المساجين بلغنى .
- وفين زنزانه المرحوم ان شاء الله .
- فى دور اربعة عنبر « ب »
عندما سمع الضابط موقع المسجون الذى ربما مات وربما يتهاوت . هدا
روعه وقال حازما .

- أياك يموتوا كلهم .. عشان نرتاح من قرفهم .
كان دور اربعة هو مجمع حثالة المساجين . صغار اللصوص
والنشالين ، والتسولين ، والذين لا أهل لهم ولا مورد ! وموت واحد منهم
أو أكثر لن يثير ثائرة حشرة فى ديوان مصلحة السجون . ولذلك انشغل
الضابط مرة اخرى بتقليب الفحم على النار ، بينما الحارس العجوز
مشتبك فى نقاش حاد مع حارس الفناء وصياح المساجين فى العنابر يتصاعد
للسماء .

وفجأة ، وقف المعلم المسلكاتى وتناول كوبا من الماء كان الى جواره ،
وصبه على الفحم المشتعل ، فخدمت النار على الفور واحداث دخنها
صوتا سرعان ماخفت وتلاشى بالتدريج . ونظر الضابط الى المعلم
المسلكاتى على عجل يجد على ملامحه تفسيراً لهذا التصرف .
كان وجه المعلم جامدا ، ونجيته مقطبا . وقال وهو ينهض من السرير :

- كفايه كده الليلاى ، شوف الواد الى ييموت دا حكايته ايه ؟
رد الدسوقي وقد بدأ مسطولا على الآخر
- دا عيل صايح ماموت فى داهية .
وقال المعلم وقد انفرجت شفاته عن ابتسامة فاترة ..

- دى روح مهيا كان ، وحرام عليك . ونهض الدسوقي فى تثاقل ، وقال وهو يحكم ربط الحزام حول وسطه ، ويعدل من وضع الكاب فوق رأسه .

- انا بس كنت عاوز اتفاهم معاك على حكاية الفرخ بتاع البنت ، أصل الحالة نار زى مانت عارف ، والواحد ما بقاش فيه حيل .

وقال المعلم وهو يربت على ظهر الضابط :

- ان شاء الله هتفرج ، وكل شىء هيبقى عال ، وانا حكون بره يوم فرح البنت وهنعمل واجب .. وارعرش الدسوقي حاجبيه . وقال فى أدب مزيف :

- يسمع من بقك ربنا . وقال المعلم : انت عليك تجيب الورق م المصلحة اقوم اخرج بعد اسبوعين ونحضر الفرخ ، ونفرح كلنا مع بعض .

- بس .. انت عارف ..

- مفيش بس ولا حاجة انت قدها وقودود .. روح شوف الواد اللى ييموت ده . وتوكل على الله ، وشوف خالك ، دول خمسميت جنيه ياييه كل جنيه ينطح اخوه شوف اكل عيشك يا بولخليل انت راجل كبير ودى حاجة هايقة .

عض ابراهيم شفته السفلى بغيظ وتلمظ كأنه قطة جائعة ، وضرب بيده على فخذه . وقال وهو ينظر للمعلم بغيظ مكبوت :

- على كل حال اللى فيه الخير يقدمه ربنا .

كان صياح المساجين يتصاعد للجو عندما خرج الدسوقي ، وزعق عسكري انقضاء انتباه ، اشارة الى ان الضابط قد حضر .

واشدت الضجة فى العناير وفى الفناء ، وانجبه المعلم المسلكاتى الى النافذة فاغلقها وغاب الضجيج خلفها ، وعاد المستشفى تغرق فى هدوء لزج متوتر . وكان خدام المعلم المسلكاتى قد اهتموا فى اخفاء كل شىء وتنظيف المكان بعناية .

وعندما تمدد على السرير استعدادا للنوم ، القى نظرة خاطفة نحوى ، فوجدنى مازلت جالسا فى مكانى ، ساهما مسطولا ، وقال المعلم وهو يشد الحزام على جسمه :

- اونطجى ابوخليل ده .. عاوز ياخذ من غير مايدى ، مش كفاية مرتب شهري قد مرتبه من الحكومة ، ويعدين قلت له على خدمة بسيطة ، عاوز

يعمل حذق ، لكن على مين . وحياتك ان ماراح المصلحة واتفق مع
الباتسكاتب على تعديل التواريخ ماهو شايف حاجة . . اصلى انا يافندى
بدل ما أقعد هنا ثلاثة اشهر ، أقعد اسبوعين وبدل شهر ١١ يقلبها شهر
٨ ، فيها ايه دى ؟

وعندما بدت الدهشة على وجهى ، قال وهو يضحك :
- يوه ، دى بتتعمل كثير قوى ، انت فاهم حد م المساجين السمان بيطلع
فى ميعاده الحقيقى ، ، الى يدفع بيطلع ، مصلحة طبخ يابيه . بكرة
احكيلك على كل حاجة .
وسرعا ماغط فى نوم عميق !

خلال أيام قليلة كانت العلاقة قد توطدت بينى وبين المعلم المسلكاتى ،
كان ودودا وسعيدا على نحو ما ، ولم يكن يشعر بالوحدة فى سجنه ، فقد
أحاط نفسه بعدد من الأصدقاء ، سكنوا جميعا فى المستشفى ، وعدد آخر
من الخدم ، وكان طعام الجميع وشرابهم ومزاجهم على حساب المعلم ومن
جيبه الخاص ، وكان يدفع لهم ثمن الإقامة فى المستشفى . وهى بالطبع
بالمجان ، ولكن هناك تسعيرة وضعها الدكتور ميشيل أجرا عن المبيت فى
المستشفى وهى مائة جنيه شهريا لتاجر المخدرات ، ومائة جنيه
للمختلس ، وخمسون جنيها للمتهم فى جناية رشوة ، وخمسة وعشرين
جنيها للمتهم فى جريمة قتل . أما السياسيون فكانت التسعيرة تخضع
للظروف والتساهيل ! وكان للخدم حساب خاص ، فقد كان الدكتور
ميشيل لايساوم بشأنهم كثيرا . لانه كان يستخدمهم فيه تنظيف المستشفى
وفى جمع الاتاوات من المرضى المترددين على المستشفى كل صباح .
ولم يكن هؤلاء الخدم خدما بالمعنى المعروف للكلمة ، ولكن كان من
بينهم الموظف والعامل وتاجر المخدرات الفقير . ولم يكن فى استطاعة
هؤلاء أن يواجهوا نفقات السجن الباهظة ، ولذلك تحولوا الى خدم داخل
السجن ، وكان حظ المعلم المسلكاتى من السماء ، فقد عثر على طباخ
درجة أولى كان فيها مضى من الزمان ، يعمل طباخا بفندق درجة أولى فى
الاسكندرية ، وخلال خناقة حامية بينه وبين أحد الشبان ، لخلاف حول
فتاة ، صفع الطباخ غريمه الشاب صفقة قوية قلعت عينه واطفأت فيها
النور . وجاء الى السجن لقضاء عقوبة مدتها ثلاث سنوات .
ويبدو أن ظروفه المادية لم تكن على مايرام ، فقضى فى السجن عاما

يعانى ، الى أن التحق بخدمة المعلم المسلكتاى . وبقدر ماكان الطباخ المدرب نعمة على المعلم ، كان أيضا نقمة عليه ، فالمعلم رجل مشهور ، وحباييه فى السجن اكثر من الهم فى القلب . وقد ذاع صيت الطباخ لاتقائه اصنافا معينة . وكان على المعلم أن يلجى كل طلبات أصدقائه فى السجن . وكان عليه ايضا أن يلجى طلبات بعض الضباط الذين يقضون الليل داخل الاسوار .

وكان فى السجن ضابطان مسئولان مسئولية مباشرة عن العنابر ، وكانا فى سن متقاربة ، ولهما نفس البداية ونفس السلوك . الضابط الدسوقى والضابط أبوبكر . وكانا يتناوبان السهر فى السجن ويكلفان باعمال تستغرق كل وقتها حتى وهم خارج الاسوار ، فكثيرا ما كان البيه المدير يكلف احدهما بالعثور له على قطعة غيار نادرة لسيارته الفيات الصغيرة ، أو البحث له عن عمال يياض للعمل فى عمارته الجديدة التى يشيدها فى ضاحية مصر الجديدة . . وكان المدير والمأمور ونائب المأمور يعاملوهما معاملة سيئة . والسبب انها لم يكونا فى الاصل من فئة الضباط . ولكنها كانا مجرد كونستابلات ارتقيا فى سلك الوظيفة حتى بلغا مرتبة الضباط . ولكن سلوكهما وهيتيهما ظلت أقرب الى العساكر منها الى الضباط ، رغم النجوم التى تزين اكتافهما ، وصرخة الحارس بكلمة انتباه التى تسبق دخولهما الى العنابر .

وكان الدسوقى أطيى من أبو بكر واكثر شعبية لدى المساجين . . فقد كان يكفى تدخل أحد المساجين الاثرياء لدى الضابط الدسوقى لكى يعفو عن مسجون فقير ارتكب ذنبا داخل العنبر ! على عكس الضابط أبوبكر الذى كان شغوبا بتعذيب الآخرين ، واحيانا عندما لايجد شخصا يعذبه ، كان يلجأ لتعذيب العنبر كله ، باغلاق الزنازين فى الثالثة بعد الظهر ، مع أن اللائحة تنص على اغلاق الابواب فى التاسعة مساء صيفا ، وفى السابعة شتاء .

وعندما كان احد يسأله عن سر اغلاق الابواب فى هذا الوقت المبكر ، كان يرد بلا مبالاة :

- احسن من خوة الدماغ !

ولكن الضابطين معا كانا يشتركان فى ارهاق المعلم المسلكتاى ، بما يطلبانه من أصناف الطعام والشراب والدخان ، وكثيرا ماكانا يطلبان سلفة

عاجلة ، عدا الراتب الشهري ، وكان المعلم المسلكتاي يبدى كرما ونخوة تجاه مثل هذه الطلبات .

وكان لكل ضابط منها سجين مدرب يساعده في اعماله داخل السجن . ويطلق عليه اسم التوبتجي ولكن هذا التوبتجي كان يتفرغ عادة للاعمال غير المشروعة التي يقوم بها الضابط . وكان نوبتجي الضابط الدسوقي اسمه روبر ، وهو يهودى مصرى مصاب بعاهة مستديمة في ساقه من اثر رصاصة اطلقها عليه احد رجال الشرطة عقب عملية سطو جريئة قام بها على احد البنوك ، واستطاع روبر الحاذق الخبير . الملم تماما بخفايا السجن واحواله ، الذى يحفظ عن ظهر قلب لائحة السجن المصرية ، والذى فرض من نفسه مركز قوة على الادارة وعلى الضباط الدسوقي على نحو خاص ، استطاع روبر أن يجعل من نفسه ندا للضباط ! ومتساويا معه في الحقوق ، وشريكا له وعلى قدم المساواة في الارباح . . . وكان الضابط اذا طلب سلفة خمسة جنيهات من المعلم ، طلب روبر نفس المبلغ لنفسه ايضا . وعندما شكأ الى المعلم من تصرفات روبر الجنونية ، وطلباته التي لا تتوقف عند حد . قلت له :

- طيب وانت بتديله ليه ؟

وهز المعلم المسلكتاي رأسه في دهشة من سؤالى ، وقال وهو ينتقل من مكانه ويقترب منى اكثر :

- حاكم دا واد شر ، وبعدين يعرف حاجات كتير ولو فتح بقه ، هيقف المراكب السائرة !

واخذنى الحماس فرحت اشرح له كيف أن خوفه ليس في محله . فلو فرض وتكلم روبر ، فان كل ماسيخسره المعلم هو مغادرة المستشفى والرجوع للزنازة ، وعلى فرض أن هذا حدث ، فليس امام المعلم الا عدة اشهر قليلة ، يستطيع أن يتحملها دون ان يضطر للخضوع لروبر . واشعل المعلم المسلكتاي سيجارة ، وكانت هذه عادته كلما استمع الى كلام لا يعجبه ، وقال وهو يشفط نفسا عميقا :

- اول هام مادام طلباته مقدور عليها يبقى في ستين داهية . وعلى رأى المثل ، الى بيعجى في الريش بقشيش ، تانى هام مين قالك اننا هقعد الكام شهر دول . أن شاء الله افراج قبل منك ، ولما تطلع امانة عليك تزورنى في البطلية . لازم نقعد مع بعض سوا قعده حلوه . ولما ابدت دهشنى لوثوقه

بان يوم إفراجه قبل يومى ، مع أن التواريخ تؤكد عكس ذلك .
قال وهو يضحك ضحكته المعهودة :

- حاكم انتوبقى يابتوع السياسة ، عليكو تشديد شوية ، لكن الجماعة
الغلاية الى زينا مقدور عليهم ياسيدى ، وأنا مكتوب فى الدوسية بتاعى
أن سجنى ابتداء شهر ١١ ولما ١١ تنقلب ٨ اخرج قبل ميعادى بثلاث
شهور .

- طيب ولما يعرفوا المسألة ؟

- ولا حاجة ، ارجع اقضى الثلاث شهور تانى .

- طيب وليه خوة الدماغ دى ، ماتقضيهم وخلص ؟

- مش لو عرفوا .. لكن همه حيعرفوا منين . بعد الافراج بيحرقوا
الورق ، لو دوروا عليه تحت طقاطيق الارض مش حيلاقوه .

وصمت لحظات قليلة ثم قال وقد لمعت عيناه ببريق غريب :

- ثم انا لازم اكون بره يافندى فى الفترة الى جايه .. انا لو خرجت
حاكسب مليون جنيه . ولازم اكون بره .

وراح المعلم المسلكاتى يشرح لى كيف أن هذه العملية روتينية بحتة ، لا
تكلف الباشكاتب الا تزويرا بسيطا فى الاوراق ، ثم أن الاوراق نفسها
ستختفى تماما ولن يكون لها اثر بعد ذلك .

وحكى لى كيف خرج المعلم خضير والمعلم قرقر ، صحيح انهم دفعوا
مبالغ باهظة ، ولكنهم ايضا اختصروا من سجنهم سنوات طويلة ، وقال
لى أن احدهم دفع مرة عشرين الفا من الجنيهاات مقابل اختصار ثلاث
سنوات .

وكان محكوما عليه بالمؤبد ، ويستحق الافراج عنه بنصف المدة . وكان
قد دخل السجن عام ١٩٥٥ ، فجرى القلم على الارغام فقلبها الى
١٩٥٢ ، عملية بسيطة لم تستغرق سوى لحظات . ولكنها حققت للمعلم
اياه أن يخرج من السجن عام ١٩٦٧ بدلا من عام ١٩٧٠ .

وضربنى المعلم المسلكاتى على كتفى ضربة خفيفة ، وقال وهو ينهض
من مكانه يجانبى ، متجها الى مكانه المعتاد :

- الكلام دا بينى وبينك ، انا بقولهولك عشان بس تعرف الدنيا ما شبه
ازاى .

كان احوال الضابط الدسوقى قد ساءت كثيرا عقب تلك الليلة
الحافلة .

فقد مات الولد المسجون الفقير ، واثبت الطبيب الشرعى الذى انتدب من خارج السجن أن الاهمال فى اسعافه .. ساعد على حدوث الوفاة ، فقد نرف الولد طويلا حتى مات . وشهد بعض المسجونين فى العنبر أن الضابط كان متواجدا فى المستشفى عندما استنجدوا به . ولكن لم يحضر الى العنبر الا بعد ساعات .

صحيح أن طبيب المستشفى شهد فى صفه ، وكذلك الممرض الذى كان فى نوبة الليل . كما شهد ايضا عدد من المساجين فى العنبر فى صف الضابط وعلى رأسهم روبر . الا أن الضابط الدسوقي بدأ مهتزا للغاية وقلقا على غير العادة . . وقال لى وهو يحكى تفاصيل التحقيق الذى جرى معه :

- اهو كان كل شىء قدامك ، لكن على رأى المثل ، خير تعمل شر تلقى . . ولم اعلق انا على كلامه بشىء !

وكأنما تحطم شىء ما فى داخل الضابط ، فقد بدا شاردا وساهما بشكل واضح . . وصارت قبضته على المساجين الغلابة اقل احكاما . ولما ابدت مخاوفى للمعلم المسلكاتى ، من أن الضابط ربما لم يعد متحمسا لموضوع تزوير الاوراق ، ضحك المعلم وقال :

- ايه علاقة ده . يده ؟ دا شغل ودا شغل يافندى . . وضحك ضحكته الطويلة المتقطعة وقال وهو يغمز بعينه :

- امبارح استلم الفلوس .

وذات صباح غادرت السجن فى طريقى الى المحكمة ، للفصل فى قضية مرفوعة ضدى من بعض الضباط اللصوص الذين كانوا يسيطرون على شركة من شركات القطاع العام .

وعندما عدت الى السجن بعد الظهر ، كان يسبقنى نبأ هز السجن هذا ، فقد اوقف الضابط الدسوقي عن العمل تمهيدا لنقله .

وعندما نظرت للمعلم المسلكاتى لأرى وقع النبأ على وجهه ، لم أستطع أن اتين شيئا . كان هادئا ساكنا كالعهد به . وعندما ابدت له ماكان يعمل فى نفس اتجاه موضوع نقل الضابط الدسوقي وعلاقته بموضوع الافراج عنه . قال بنفس النغمة الهادئة الواثقة :

- ابدأ ، ولا حاجة ، كل حاجة ماشية تماما .

وأعتقدت أن كبرياء المعلم المسلكاتى يفرض عليه هذا الهدوء ، وأنه ربما

يغلى فى داخله ، ولكنه يتجلد حتى لا يشمت فيه الاعداء ، وتأكد ظنى هذا ، عندما جاء الى ذات صباح ، وبعد أن شرب الشاى ، قال لى فى صوت خفيض للغاية :

- الحكاية بتاع الأفراج دى مسألة بينى وبينك ، ولما أكدت له أن السر فى الحفظ والصون ، قال وهو يستعد للانصراف :

- حاكم أنت عارف الجماعة المساجين كلامهم كثير .
فى هذه اللحظة تأكد لى أن المعلم قد أيقن من خديعته . وأن هذه الكلمات هى نصوص اتفاقية التسليم بدون قيد ولا شرط لهزمته وبالفعل ، انزى المعلم المسلكاتى بعد ذلك ولم يعد يغادر سريره الا نادرا ، وانقطعت جلسات الحشيش وهجر المستشفى مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا معه ، ولم يبق من مجموعة الخدم إلا الطباخ وآخر كان يتولى ترتيب سرير المعلم وتنظيف دورة المياه ، قبل أن يتوجه اليها المعلم فى الصباح الباكر ، ولكنه لم يفارقه هدوؤه ، ولم تغادر الابتسامة شفثيه !

وراحت الأيام تزحف ، والموعد يقترب ولكن لا حس ولا خبر. وذات يوم فوجئت بالضباط الدسوقي فى المستشفى ، كان قد صدر قرار بنقله الى سجن المرج ، وجاء لتسليم عهده فى سجن القناطر ، ثم انتهزها فرصة لتوديع اصدقائه من المسجونين ، وجلس يشيد بسجن المرج ، وكيف أن الله أكرمه بنقله الى هناك .

وبعد أن شرب الشاى معنا صافحنا جميعا ، ثم انصرف .
عندما ودعت المعلم المسلكاتى فى صباح اليوم التالى وأنا فى طريقى الى المحكمة ، شد على يدى بقوة ، وقال لى فى الحاح شديد :
- حياة سيدنا النبى ما تنسانا بعد الافراج . دا عيش وملح يا افندى ، مش لعبة ، ولازم تزورنا ونزورك .

ووعدت المعلم المسلكاتى بزيارته فى السجن بعد أن يفرج عنى ، وكان قد بقى لى أسبوعان خلف الأسوار . . وضحك المعلم المسلكاتى ضحكته الودودة ، وقال وهو ممسك يدى :

- طب اقرأ الفاتحة انك تبقى تزورنا .
وقرأت الفاتحة معه ، وودعته وانصرفت .

كان يوما مرهقا طويلا هد من كيانى ، وما أن وصلت الى السجن حتى صعدت بسرعة الى المستشفى ، واستلقيت على الفراش ولم يكن

بالمستشفى أحد على الاطلاق ، إلا مسجون عجوز نائم أو هكذا خيل الى . والصمت يطبق على العنبر ، وحتى الممرضون غادروا أماكنهم المعتادة وانصرفوا الى حيث لا يعلم أحد ، وعندما ناديت على أحدهم لكي يسعفني بكوب ماء ، رد على المسجون العجوز الذى حسبته نائما ، وقال بصوت مسلوخ :

- مش هتلاقى أى حد هنا ، أصل عقبال عندك المعلم المسلكانى طلع افراج .

وضاع صوته فى الضجيج الذى انبعث من الفناء ، فقد راحت الصفارات ندوى ايدانا بالتهام . كانت الساعة الخامسة لم تزل ، ولكن هكذا تقضى قواعد الضبط والربط فى السجون . وصوت الجاويش مرسى الشرس يتصاعد فى الجو ، يلعن أبوالمساجين الحقراء الذين يتحدون كل القوانين ، حتى فى السجون لا يريدون الخضوع للنظام .



الفصل الخامس
عبدالمستار السياسي

سمعت عنه قبل أن أراه . كانت زنزانه تواجه زنزانتى ، وكانت مغلقة طول النهار ، بينما نزيلها يتمشى كالحيوان المحبوس فى فناء السجن ، جيئة وذهابا فى خطوات منتظمة ، ويده خلف ظهره ، بينما كانت ملابسه الرثة تظهر من لحم ظهره أكثر مما تخفى ، وحذاؤه البالى المثقوب ، يجعله يسرع الخطى متأففا عندما تكون الشمس فى كبد السماء . وكان ضخم الجثة مهوش شعر الرأس حاد الطبع ، وكانت تهمة سياسية ومدة سجنه ثلاث سنوات . وعندما وقع بصرى عليه أول مرة كان قد مضى عليه فى السجن عامان ، وكان يتمتع بسمعة سيئة لدى جميع النزلاء ! ولكثرة ما سمعته عنه من أفواه النزلاء تمنيت أن التقى به وأتحدث اليه . فقد خيل الى انه ربما لم يستطع أن يحفظ توازنه بين ما فى رأسه من مثاليات ، وما فى السجن من واقع . وربما تعرض لصدمة فى بداية سجنه ، أفقدته القدرة على التعامل مع الجو المحيط به ، وربما امتلأ قلبه حقدا على كل من حوله من خلق

الله ، وربما احترق تعذيب الآخرين ، احتجاجا على التعذيب الذي لقيه . وهو على أية حال شخصية يستحق الدراسة . . وتستحق الرثاء .

ورغم محاولاتي العديدة للتعرف اليه ، الا ان الفشل كان من نصيبي دائما . فكلما التقينا وجا لوجه في الفناء ، كان يفتح فمه عن ضحكة عصبية لا تحمل أى معنى ، ثم يسرع الخطى مطأطء الرأس ، وبصره على الارض ، كأنما هو ديك رومى هربان يبحث عن شيء يلتقطه ، وعندما أعتنى الحيل صرفت النظر تماما عنه . فقد اقتنعت بأنه لا بد أن يكون مجنوناً ، أو على الأقل مسه خيل في عقله . فقد كان أحيانا يصرخ لأنفه سبب ، وأحيانا لغير ما سبب .

وكان اذا صرخ سبب المساجين والحراس والادارة ، فاذا وقع بصره على الضابط ، اكتفى بسبب المساجين فقط واليوم الأغبر الذى قذف به الى هذا المكان !

وبعد أسابيع طويلة من وصولي الى سجن القناطر لغط السجن كله بأن عبدالستار السياسى مريض بمرض خطير ، وانه طلب نقله الى مستشفى قصر العيني ، ولما لم تستجب الادارة الى طلبه ، هدد بالاضراب عن الطعام ، ولكن تهديده لم ير النور على الاطلاق ! .

وذات مساء وكان الليل قد انتصف ، سمعت نحيبا مكتوما يتردد صدها عبر جدران السجن الغليظة الصماء . ولما أصغيت السمع جيدا اكتشفت أن الصوت صادر من زنزانة عبدالستار . وشعرت بالحزن عليه ، فاذا كان السجن الانفرادى سيئا ، فليس أسوأ من الشعور بالوحدة في سجن يموج بالسجناء . فطوال الفترة التى مرض فيها لم يدخل زنزانيته احد الا الحارس الغليظ الذى كان يكن كراهية خاصة لعبدالستار ، مبعثها انه لا يملك فائضا من السجاير . كما أن منظره لا يوحى بأنه مسجون سياسى ، ولا بد أن هناك خطأ ما . وكانت تجربة الشاويش الحلوانى الطويلة في السجن تؤكد ان المساجين السياسيين كلهم من طبقة الاثرياء . وزراء سابقون ، ورجال أحزاب من اصحاب الطين ، وضباط وعامون وصحافيون وأطباء وأحيانا طلبة ، ولكنهم جميعا يعيشون في السجن في بحبوحة من العيش ، ويفقدون بسخاء على الحراس والمساجين . نعم كله الا هذا العبد الستار .

فلم يكن معه ما يعطيه لاحد ، بل انه اقترض من كثيرين دون أن يرد لهم ما عليه من دون . وكان الشاويش الحلواني كلما ذكر أحد اسم عبدالستار امامه ، قال وهو يقسم بأغلظ الايمان :
- طب تصدقوا بأيه ، وحياة سيدنا النبي دا ما هو سياسى ولا حاجة ، دا أكيد مخبر فى المباحث ومزقوق على حد هنا . حاكم الحكومة ساعات تعمل حاجات زى كده .

ولقد انتشرت هذ الاشاعة التى اطلقها الحلواني ، حتى أصبحت شبه حقيقة يتداولها الجميع حتى الضابط الدسوقي كان يعتقد أنها حقيقة ، ولذلك يحتقره ويحذر منه ويخشاه فى الوقت نفسه ، ورغم عدم قيام أى دليل على صحة هذا الكلام الا انه زاد فى نفور الناس من عبدالستار ، حتى صار يعامل فى السجن معاملة حشرة مؤذية يتجنبها الجميع ! .
وعندما فتحت عليه باب زنزانته فى ذلك الصباح ، كان ممددا على الارض فوق بطانية قذرة ممزقة صار لونها مثل لون الأرض ، ولم يكن فى الحجرة شئ على الاطلاق ، بدت عارية تماما الا من جردل البول وجردل مياه الشرب . ولم يكن ثمة فرق بين الجردلين وعندما شعر عبدالستار بحركة فتح الباب ، تماوت وزفر زفرة أنين خافتة ، فقد ظن أنه الحارس جاء لأمر ما . فلما القيت عليه تحية الصباح . هب مفزوعا كمن لدغته عقرب ، ورد على أسئلتى بإجابات مقتضبة .

ورغم لقائه البارد ، فقد جلست فى مواجهته على أرض الزنزانة ومددت له يدى بكوب شاي كنت قد اعددت له ، ولكنه رفض بشدة . ولما لمس منى اصرارا شديدا ، فقد قبله على مضض ، وراح يرتشف الشاي بصوت مسموع ، ثم قبل منى سيجارة شاكرا . أشعلها واخذ منها انفاسا عميقة متلاحقة ، وعندما ابدت له دهشتى من العزلة التى فرضها على نفسه اجابنى فى حسم :

- دول اصلهم ناس وسخة . . ثم واصل حديثه ، وكان قد انتهى من احتساء اخر رشفة فى كوب الشاي :

- انا بينى وبينك مندهش انت بتتكلم مع الناس دول ازاي ، ناس حراميه ومجرمين .

ولم يتصل النقاش بيننا بعد ذلك ، قطعه هو عندما أبدى رغبته فى النوم ، فتركته على امل لقاء اخر . وتعمدت ان اترك علبة السجائر مكانها

على الارض . فقد قدرت انه في حاجة شديدة اليها . وتعددت اللقاءات بيني وبين عبد الستار بعد ذلك ، وكنت اكتشفت في كل مرة شيئا جديدا فيه ! ولكنه لم يفتح قلبه قط . وان كانت ثورته الشديدة على المساجين لم تبدأ قط . وذات صباح طرق على الباب ، ويدون اى مقدمات ، طلب علبتي سجائر لأمر هام . وسحبت علبتين واعطيتهما له . فأمسك بهما ووقف ينظر نحوى نظرات لم افهم معناها في البداية ، وعندما استفسرت منه عما اذا كان نوع السجائر لا يعجبه ، لم يجب ، عرض على شفتيه السفلى بقسوة ، ويكى فجأة ، ثم توقف عن البكاء فجأة ، ثم مد يده وصافحني بحرارة ، وشكرني بشدة ، ثم غادر الزنزانة لا يلوى على شيء ، وانفتحت مغاليق عبد الستار بعد هذا اللقاء ، وراح يتردد على كثيرا .

ثم تنازل أكثر وقبل الهدايا التي اقدمها له من مأكولات وسجائر ، وذات ظهيرة وبعد وجبة دسمة طيبة ، اشعل عبد الستار سيجارة ، ونفث دخانها على شكل حلقات في الفضاء ، وقال وقد اسند ظهره بحائط الزنزانة :

- أنا كنت فاكرا ان السجن هيهدي ، لكن أنا بعد تجربة السجن ، لازم أهد المجتمع كله .

وحكى لي عبد الستار عن نشأته في احدى قرى محافظة البحيرة وأفاض في شرح حالة عائلته الاقطاعية ، وكيف أن والده دله حتى أفسده . وعندما التحق بكلية التجارة كان يملك سيارة ، ومرتباً ثابتاً ، وشلة من الاصدقاء اللامعين ، ولكن هذه الحياة انهارت كلها بوفاة والده ، واستيلاء أعمامه على الثروة ، وحرمانه من نصيبه .

واستيقظ عبد الستار ذات صبح ليجد نفسه في القاع ، وليكتشف حقائق جديدة في الحياة ما كان يمكن اكتشافها بغير ذلك . وواصل عبد الستار تعليمه الجامعي في عنت شديد ، وعندما تعرف على لطفى رأى الحياة بمنظار آخر يختلف . ولكنه كان المنظار الصحيح .

وكان لطفى رئيساً لتنظيم سياسي متطرف ، سرعان ما انضم اليه عبد الستار ، وكان هدف لطفى الأساسي ، تنظيم الفلاحين وتعبئة قواهم ، ثم الثورة على السلطة والاستيلاء عليها بعد ذلك . ووجد عبد الستار ضالته الكبرى في لطفى وتنظيمه الثورى . فصار أنشط الأعضاء

وأشدهم التزاما . وعندما تخرج في الجامعة ، واشتغل مأمور ضرائب في دمنهور ، راح ينظم مجموعات من الفلاحين في القرى القريبة من المدينة ، ثم ما لبث أن سقط في يد المباحث ، ثم المحاكمة ثم السجن . ولكن هيهات أن يسكت السجن صوته ، سيعاود الكَرَّه من جديد ، وسيشعل الثورة حتما ، وسيقبض على زمام السلطة يوما ما .

وكان واضحا أن روايته التي قصها عن أسرته ، شيء أشبه بروايات الأفلام المصرية الهايفة . الأسرة الثرية والمجد العتيد ، ثم الفقر المدقع ، ثم الثورة !

وكان منظره وطريقة تعامله مع الآخرين توحى بأنه من أحط طبقات المجتمع وأكثرهم فقرا . وأنه لولا مجانية التعليم لما استطاع أن يقرأ ويكتب . ولكن مظهر البراءة الذي بدا على وجهه ، واصغائي الشديد لحديثه ، جعله يطمئن كثيرا ، فراح يحكى لى عن سفريات وهمية قام بها للخارج ، عندما كان يحيا في بحبوحة العيش ، وعن غزوات غرامية قام بها لנסاء شهيرات في المجتمع ، وذات مرة ، وعقب اقتراضه عدة علب من السجاير كان في حاجة شديدة إليها كما هى عادته ، 'همس في أذنى بسر خطر .

كان السر الذى افضى به عبدالستار ، بعد أن أطمأن الى ان الضابط خارج العنبر وحارس الدور يتمدد فترة القيلولة ، وكل شيء على ما يرام . مزيجا من الجنون والاحلام والأمانى المستحيلة . وفي البداية اشعل عبدالستار لنفسه سيجارة وجذب منها أنفاسا عميقة طويلة ، وقال وهو يرمقنى بنظرة حادة من خلال سحابة الدخان التى غطت وجهه .
- أنا بعد سنة واحدة من خروجى من هنا حاكون استوليت على الحكيم .

وعندما بدت البلاهة على وجهه ، وربما الاستهزاء أيضا ، ضرب جبهته براحة يده وقال وهو يعتدل في جلسته :

- مشن مصدقنى ، بكرة تسمع واثت هنا في السجن . ولما لم أعلق على شيء ، راح يشرح تفاصيل الخطة الجهنمية التى ستحملة الى السلطة في البلاد .

لقد اختار الفيوم ليبدأ منها حركته المقبلة . ولقد اختار الفيوم لعدة اعتبارات : فهو، واحة كبيرة تحيط بها الصحراء من كل جانب ، ويفصلها

عن الوادى خط سكة حديد يسهل نفسه وبذلك تصبح مقطوعة عن الوادى تمام . أما الطريق البرى الذى يربطها بالقاهرة فهو ضيق لا يزيد عرضه عن ستة امتار ويمكن قطعه عن طريق عدد من القناصين لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة . أما الطريق البرى الآخر الذى يربط الفيوم ببني سويف ، فهو طرق رملى وغير مهده ، ويمكن اصطلياد قوات الحكومة التى ستقطع الطريق وتدمرها تماما . فاذا لجأت الحكومة الى ضرب الفيوم بالطائرات ، فسيخلق هذا العمل الوحشى من جانبها رد فعل لدى الجماهير فى العاصمة وستهب هذه الجماهير فى ثورة عارمة ضدها . كما أن الفيوم هى احط محافظات مصر مستوى للمعيشة ، وهذا الوضع يجعل منها قاعدة للثورة ، ويجعل جماهيرها الفقيرة مستعدة لخوض المعركة فى سبيل مكان أفضل تحت الشمس . وقال عبدالستار بعد أن انتهى من عرض الخطة :

- كاسترو بدأ فى كوبا بعشرين واحد ، وأنا عندى ألف واحد مستعدين .

وسألت عبدالستار سؤالا بدا ساذجا للغاية :

- طيب انت ساكن فى دمنهور ، هتروح الفيوم ازاي ؟ .

- أنا راجل موظف وهاطلب نقل للفيوم .

ثم صمت طويلا قبل أن يقول :

- بس وحياة والدك الكلام دا بينى وبينك ، ودأ سر لو طلع بره رقبتي

تروح فيه . وبعد أن اشعل سيجارة اخرى اضاف :

وأنا مش خايف على رقبتي ، أنا مستعد أقطعها من دلوقتي علشان

مصر ، لكن بينى وبينك أنا خايف على الثورة .

وخلال الايام التى تلت افضاءه بسر الخطير ، كان عبدالستار دائم

التردد على مكاتب الادارة للاستفسار عما تم فى مسألة الافراج عن

المسجونين السياسيين .

وكانت الاجابات التى يتلقاها متضاربة . كان بعضها يؤكد ان الافراج

تقرر وقد يحدث فجأة ، والبعض الآخر يؤكد ان المسألة لا تزال مجرد

اقتراح ولم يدخل بعد دائرة البحث والتنفيذ .

وذات صباح استدعى عبدالستار عن طريق الميكروفون للزيارة . وشاهد

المساجين رجلا مسنا يرتدى جلبابا متسخا وطاقيّة متأكلة الحوافى . وحذاء

أجرب بلا لون ، صافح عبدالستار في غرفة المأمور ثم احتضنه . وجلس معه قرابة نصف الساعة ، وعندما انتهت الزيارة مد الرجل يده لعبدالستار وناوله اربع علب سجائر من صنف رخيص ، ثم خرج الرجل وهو يحفف دمة انحدرت من عينه بطرف جلبابه الممزق الملوث بالشحوم والتراب .

وشهدت زنازة عبدالستار بعد الزيارة حشدا كبيرا من المساجين سرعان ما تحول الى مظاهرة وارتفعت الاصوات وتواتت اللعنات على رأس عبدالستار وتصاعدت في الجو كلمات نصاب ولص وغشاش . والسبب ان اصحاب الديون الذين انتظروا طويلا وضربوا على عبدالستار ، والذين وعدهم بتسديد ديونهم عندما يزوره أحد من أهله ، وها هي الزيارة قد تمّت ، وعبدالستار لا يزال يماطل ويسوف ويدعى ان الذي زاره هو واحد من خدام والده معجب الى حد ما بثورية عبدالستار ، وان الخادم المسكين لم يستطع أن يقدم له الا اربع علب سجائر هي كل ما استطاع ان يدخره من قوت يومه . غير أن المأمور فضح عبدالستار في اليوم التالي حين أكد ان الذي زار عبدالستار هو والده شخصيا ، وانه اطلع على بطاقته الشخصية ، وانه يعمل بقالا في دمنهور ، وانه خلال الزيارة شكى لعبدالستار من وقف الحال وقلة المكاسب ، واعتذر عن عدم زيارته كل هذا الوقت الطويل لأن العين بصرية واليد قصيرة كما يقولون .

وانزوى عبدالستار في زنزانه من جديد ، وتحاشى حتى الخروج الى الفناء . ولكنه فجأة طرق باب زنزانتي ذات عصرية ، وجلس امامي يزفر بشدة ، وقال وهويتناول سيجارة قدمتها اليه :

- ما فيش فايده ، الافراج طلع اشاعة ، عشان كده انا قررت أهرب .
ولما اعترضت على مشروعه الجديد لاستحالة الهرب من سجن القناطر ، قال مستخفا :

- دا مفيش أسهل من الهروب من هنا ، وعلى شرط . . في عز النهار .
ولما استفسرت منه عن كيفية تدبير هروب مسجون سياسي وفي عز النهار ، قال وهو يهز رأسه هزات خفيفة كأنه درويش عجوز في حلقة ذكر :

- عارف الحوش بتاع الرياضة .

ولما أجبته بالايجاب ، استطرد قائلا :

- فيه واد عسكري واقف على السور في آخر السور بيراقب الحوش كله

والسور طوله أربعة أمتار ، وفيه مصطبة تحت منه ارتفاعها مترين ونصف .
والعسكري طول النهار مشغول بالكلام مع المساجين عشان يهرب لهم
شأى من . السور ويشحت سجائر منهم . ساعة التهريبه هاطلع أنا
المصطبة ، وأنطع السور من ورا ، وهالبس بلوفر ملكى فوق بنطلون
السجن وهاقفز أنا فى الشارع وهامشى على مهلى وكأنى طالب بيتفسح فى
القناطر الخيرية . وعبثا حاولت اقناعه بتأجيل مشروعه ، فربما كان هناك
تفكير بالفعل فى الافراج عن المسجونين السياسيين ، وحادث من هذا
النوع سيجعل موضوع الافراج ينام على الرف عدة سنين .
ولكن عبدالستار كان قد قرر وانتهى الأمر ، وقال وهو يستعد
للانصراف :

- الأسبوع ده حيكون كل شىء انتهى ، بس ..
ولما لم يجد منى تشجيعا على مواصلة الحديث أكمل قائلا :
- بس أنا محتاج مبلغ نقدى ، حسبة عشرة جنيه لو تدبرهم لى يبقى كتر
خيرك .
ولما أبدت له اسفى الشديد لعدم توافر مثل هذا المبلغ معى ، قال على
الفور :
- على العموم ممكن السجائر تسد ، لو تدبر لى ثلاثين علبة سجائر تبقى
المشكلة انحلت .
وعندما أبدت له استعدادى بتدبير عشر علب سجائر فقط لا غير ..
قال ممتنا :

- مش بطل ، بس وحية والدك تحضرهم بكرة .
وفى اليوم التالى كان يقتحم على زنزانتى . وعندما ناولته العلب
العشرة ، فحصبها بدقة ، وقال كأنما يخاطب نفسه :
- على العموم هادبر الباقي أنا ، عن اذنك . ولمحت بعد قليل عددا من
اصحاب الديون يتردد على زنزانة عبدالستار ، وبغيبون داخل الزنزانة
قليلا ، ثم يخرجون ومعهم سجائر فرط يحصونها فى حرص ، ويضعونها فى
جيوبهم قبل أن يمضوا . ومر اسبوع واسابيع كثيرة وعبدالستار مكانه ، ولم
يبرح السجن ولم يقفز من فوق السور ولم افاتحه فى هذا الموضوع مرة
أخرى ، فقد حمدت الله لأن عبدالستار كف بعد ذلك عن اقتراض سجائر
منى .

ولكنه ذات صباح هجم على في فناء الرياضة وانا اشترك في مباراة لكرة القدم . وقال بلهفة :

- ألاقى معاك سيجارة .

ولما اعتذرت له عن عدم وجود سجائر معي تلك اللحظة ، قال :
- طيب لما تطلع فوق ، ثم اشر الى حيث يقف العسكرى فوق
السور ، وغمز لى بعينه ، وقال بصوت هام :

- المكان أهه ، لو عاوز أهرب دلوقت أقدر ، بس ياخسارة .
ويبدو أن عبدالستار كان يراقبني اثناء مزاويتي اللعب ، فما أن صعدت
الى زنزانتى حتى فوجئت به خلفى . وقال وهو يجلس حيث اعتاد
الجلوس :

- شفت بقى المكان ، سهل ازاي؟؟ ! ولما لم اعلق بشيء فقد قال
مستطردا :

- بس الله يخرب بيوتهم .. الجماعة اللي بره .

ولما استفسرت منه عن يكونون هؤلاء الجماعة أجاب بسرعة :
- أعضاء الحزب ، بعتلهم يحضروا لى عربية يقفوا بيها عند الكوبرى ،
عشان بسرعة اختفى من القناطر ، لكن لحد دلوقت لا حس ولا خير .
رحت التمس الاعذار « الجماعة » فربما لا يوجد لديهم سيارة ، فى الوقت
الحاضر ، أوريا الرقابة المفروضة عليهم لا تتيح لهم التحرك فى حرية .
وقاطعنى عبدالستار قائلا فى حزم :

- على العموم ، أنا قررت انتظر لحد يوم الخميس واذا مالتيش رد .
ها أهرب ، واللى يحصل يحصل .

ثم طلب منى علبة سجائر واحدة ، ولم ينس ان يقول قبل ان يغادر
المكان ..

- على العموم كل شيء بحسابه ، وحقق محفوظ .

ومر يوم الخميس ، ولم يتلق عبدالستار ردا من الخارج ، ولم يهرب من
السجن . وجاء يوم الجمعة ولم يخرج من الزنزانة ، وفى المساء عندما أغلق
السجن أبوابه ، صعد مسجون من اللصوص على نافذة زنزانيته وصاح
بصوت كالرعد :

- يا عبدالستار يا سياسى اذا ما دفعتش اللى عليك بكراهة هافتح كرشك
بنصله ، أنا باقولك أهه والسجن كله شاهد ، ولم يرد عبدالستار على

المسجون ، حتى نور زنزانتة أطفأه ويبدو أنه اثر النوم في هذه الساعة المبكرة من الليل .

وفي الصباح استيقظت عند الضحى . . أيقظني الشاويش عبدالقادر وقال وهو يهزى بعنف :

- انت لسه ناييم . دا انت فانتك نص عمرك .

ولما استفسرت منه عما يعنيه ، قال وهو يضحك .

- عبدالستار السياسى .. ماله ؟ .

- السجن كان هيلع النهاردة من تحت راسه . وراح الشاويش عبدالقادر يحكى لى كيف فوجيء المساجين بأن عبدالستار مطلوب للترحيل الى سجن دمنهور تمهيدا للافراج عنه من هناك وكيف اكتشف اصحاب الديون هذه الحقيقة في آخر لحظة ، فهجموا على مكتب المأمور يريدون الفتك بعبدالستار . واعتذر عبدالستار لهم عن عدم استطاعته دفع ديونهم لانه فوجيء بقرار الترحيل ، ولكن مسجوننا قديما قضى في السجن خمسة عشر عاما اقسام أن يقتل عبدالستار ولو كان الثمن أن يفقد حياته هو الآخر .

واضطر المأمور الى ان يدفع للمسجون القديم من جيبه ما على عبدالستار من ديون ، ثم أعلن حالة الطوارئ في السجن . واستدعى فرقة المطاردة . وأغلق جميع الزنازين لكي يتمكن من ترحيل عبدالستار الى دمنهور .

وخيل الى وأنا استمع الى رواية الشاويش عبدالقادر انه ربما شعرت الادارة برغبة عبدالستار في الهروب فأثرت أن تنقله الى سجن أكثر احكاما . وربما تم الامر مصادفة ، ولكنها ستكون فرصة لعبدالستار ليهرب اثناء ترحيله الى سجن دمنهور . خصوصا عندما علمت من الشاويش ان الحراسة لم تكن مشددة وان جنديا واحدا هو الذى اصططحبه معه الى سجنه الجديد .

ولكن كل أوهامى تبددت حين علمت من المأمور أن الترحيل تم بناء على رغبة عبدالستار نفسه . وقد أرسل الى المصلحة طلبا بترحيله منذ ثلاثة أسابيع . ولما سألت عن سر هذا الطلب ما دام الافراج عنه سيتم بعد أسابيع ، رد المأمور بأنه لجأ الى هذه الحيلة ليهرب من الديون ، لأنه لو مكث في سجن القناطر حتى يوم الافراج عنه ، فحتما سيقتله مسجون من

اصحاب الديون اذا لم يدفع ما عليه قبل يوم الافراج بيوم .
ومضت أيام كان عبدالستار هو حديث السجن ، ثم انشغل السجن
بنفسه ونسى عبدالستار . الا انا . . فقد رحت ارقب يوم الافراج عنه ،
ورحت اتابع الصحف بعد ذلك ابحت بين سطورها عن حوادث اخلاخل
بالامن وقعت فى محافظفة الفيوم .

ومضت شهور طويلة ، وحل موعد الافراج عنى ، ونسيت عبدالستار
تماما فى غمرة الاحداث التى استقبلتنى خارج الأسوار . ومرت سنوات على
لقائى مع عبدالستار قبل ترحيله الى دمنهور ، ومنذ أيام رأيت صورته فى
احدى الجرائد ، وسط حشد كبير من المواطنين ، وأين ؟ فى مدينة الفيوم .
وفى مبنى الاتحاد الاشتراكى ، والمناسبة احتفال ضخم اقامه انصار تنظيم
الوسط تأييدا لخطوات الحكومة فى سبيل حل مشاكل الفلاحين .
كان عبدالستار هو الخطيب ، وكانت قسات وجهه تحمل علامات
التأييد المطلق والحماس الشديد ! .



الفصل السادس
عبد الحفيظ الاشتراكي

كان محمود عبد الحفيظ ، أو الحاج محمود كما كان يخلوله أن يطلق على نفسه ، أحد الذين أدينوا أمام محكمة الثورة بتهمة مقاومة حركة ١٥ مايو . وكان الحاج محمود شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين . قصير القامة متين البنيان ، ويعمل موظفا بالحكومة ، ويملك بيتا في المطرية ، ويدير محلا للبقالة كان يمتلكه أبوه قبل أن ينتقل الى رحمة الله . وكان الحاج محمود رغم موقفه الشائن من اخوته البنات بعد وفاة والده ، واستثائه بركة الوالد بدعوى الحفاظ عليها من التبديد . رغم موقفه هذا فقد كان شديد التدين شديد الاستقامة ، من المكتب الى البيت ، ومن البيت الى الدكان ،

ورغم حرصه الشديد الذى يبلغ حد البخل ، الا انه كان يخلوله بين الحين والحين استقبال بعض الأصدقاء ، فيجلسون أمام الدكان فى أمسيات الصيف الجميلة ، وكان الحاج محمود يقدم لهم فى تلك السهرات

الشأى وأحيانا الحلوى والسجاير عن طيب خاطر . ورغم انه كان نصف متعلم ، الا انه كان راضيا عن نفسه تمام الرضا ، فهو يقرأ الجرائد اليومية ، ويستطيع أن يقرأ ما بين السطور . وكان له رأى فى السياسة يديه دائما بين الحين والحين ، وان رأيه لا يتعدى نطاق انتقاد سلوك لمأمور الشرطة أو مهندس الكهرباء أو أمين الاتحاد الاشتراكى فى الحى . ولذلك عندما تولى مسئولية الاتحاد الاشتراكى فى الزيتون أحد الرجال الاذكياء ، سارع بضم الحاج محمود الى عضوية الاتحاد الاشتراكى ، أولا ليتقى شره ، وثانيا ليتسنى له استخدام سهرات الدكان ضد من شاء من خصومه .

وطار الحاج محمود فرحا لهذا الشرف الرفيع ، فقد أصبح واحدا من اولى الرأى ، واتسعت حلقات المساء التى يعقدها امام الدكان ، وكان سعيدا رغم زيادة التكاليف والاعباء .

والحق ان الحاج محمود لم يكف عن نقد مأمور الشرطة ومهندس الكهرباء ورجال البلدية . ولم يبخل بمساعدة على من يطلبها بشرط الا تكلفه نقودا . لأنه رغم مكاسبه كان دائما فى ضائقة مالية ، بسبب انشغاله فى بناء الدور الثالث فوق البيت الذى ورثه عن أبيه ، وحتى بعد أن انتهى من بناء الدور الثالث ، فقد شرع فى بناء الدور الرابع ، وكانت زوجته المدبرة التى تكبره عمرا . وتفوقه ذكاء ، هى خير معين له فى تنظيم شؤنه بحيث شعر الحاج محمود انه فعلا محظوظ ، فقد فاز بالزوجة الطيبة والعيش الطيب والمركز المرموق .

وعندما وقعت كارثة ١٩٦٧ ، فقد الحاج محمود صوابه وفقد توازنه ايضا . وعندما رأى علم اسرائيل يرفرف على شاطئ القناة بكى من شدة القهر ، وانزوى بعد ذلك فى حدود بيته ودكانه ومكتبه بالوزارة . وكف عن التردد على مكتب الاتحاد الاشتراكى . وحتى السهرات التى كان يعقدها امام الدكان فى أمسيات الصيف الجميلة عزف عنها . وبدا للناس فى الحى انه تفرغ لشؤنه الخاصة ولم يعد له ادنى صلة بما يدور فى البلد من احداث . وربما استبد الحزن بهؤلاء الذين كانوا يستفيدون من نشاط الحاج محمود السياسى ، ولكن الفرحة استبدت أكثر بزوجته التى رأت فى مسلكه الجديد عوناً لها على التوفير استعداد لبناء الدور الخامس . فلم تكن الزوجة تؤمن بجذوى العمل السياسى ، بل كانت ترى فيه وفى التدخين ضررا

بالصحة وبالمال ، وكانت عبارة مفيش فايدة هي شعارها المفضل ، وكانت تردده دائما كلما رأت الحاج محمود منغمسا في مناقشة حادة حول القضايا الهامة في البلاد !

ولكن فرحة الزوجة لم تدم طويلا . فسرعان ما دب النشاط من جديد في الاتحاد الاشتراكي ، وجاء أمين جديد في الحى أكثر جدية من الأمين السابق ، وبحث في دفاتره القديمة عن الانصار الذين ولوا ، وقرر أن يلم الشمل من جديد ، وذهب الأمين بنفسه الى دكان الحاج محمود وسهر معه حتى منتصف الليل يحاول اقناعه بالعودة للعمل السياسى ولكن الحاج محمود اصر على موقفه ، وأعلن رأيه بصراحة للأمين الجديد ، وانصرف الأمين دون أن يقطع الأمل في عودة الحاج محمود ! ولكن الزوجة انذرتة بأنه ستهجر البيت اذا عاد الى خوتة الدماغ من جديد .

وقام الحاج محمود تلك الليلة بعد أن وعد زوجته وعدا قاطعا بعدم العودة الى نشاطه السابق ، لكن زيارات الأمين تكررت بعد ذلك وكان يخوض احيانا في السياسة مع الحاج محمود وحيانا يكفى بكلام عام حول الاحوال السائدة في البلاد .

والحق ان الحاج محمود كان سعيدا بلقاء الأمين ، وكان اكثر سعادة بجلوس الأمين امام باب الدكان . وذات مساء وبعد أن انتهت السهرة همس الأمين في اذن الحاج محمود بأن الاختيار قد وقع عليه ليكون عضوا في التنظيم الطليعى . حاول الحاج محمود أن يعتذر ، ولكن الأمين قاطعه في حزم :

- أعتذر بقى لعبد الناصر ، أنا ماليش دعوة بالحكاية دى .
ولم يغمض للحاج محمود جفن في تلك الليلة . فأين هو من عبدالناصر ؟ وكيف عرفه عبدالناصر ؟ ولماذا اختاره هو بالذات . وعندما سألته زوجته عن سر أرقه وسهاده ، اعتذر لها بأنه يعانى من صداع حاد ، ولم يشأ أن يكشف لها عن السر !

وبعد أيام اعتذر الحاج محمود لزوجته في الذهاب للعرزاء في وفاة والد احد الاصدقاء . وذهب الى اول اجتماع لأعضاء التنظيم فى حى الزيتون . وكاد يغمى على الحاج محمود من هول المفاجأة ، فقد رأى لأول مرة المحافظ بلحمه ودمه ، وأكثر من هذا رأى أحد الوزراء المرموقين ، ثم عددا من كبار المسئولون . اذن فالامر لا هزل فيه . وهذا التنظيم يختلف عن الاتحاد الاشتراكي .

وشعر الحاج براحة تغمره وسرور يسرى في دمه . . لقد أصبح الآن رجلا مشغولا وسيثبت للجميع انه أهل لها وأنه اجدر الجميع بحملها وأقدرهم على حلها ! وبكت زوجة الحاج محمود عندما جلست معه بعد عودته تستمع اليه عما حدث بالتفصيل .

ورغم بكائها فقد اقنعها ان ما حدث فيه خير له وخير للبلاد . وهذا روعها قليلا عندما الملح لها أن في استطاعته الآن مقابلة المحافظ بسهولة ، وان هذا سيفيده حتما في الحصول على مواد التموين !

ومضت الحياة بالحاج محمود بعد ذلك عادية رتيبة الا من اجماع اسبوعي يعقده في التنظيم ، صحيح أن الاجتماع اقتصر بعد ذلك على بعض المواطنين وامين القسم . وصحيح ايضا أن المحافظ والوزير وبقية المسؤولين اختفوا بعد الاجتماع الأول . ولكن الحاج محمود كان مطمئنا الى ان محاضر الاجتماعات ترفع الى المستوى الاعلى حتى تصل في النهاية الى الرئيس نفسه . ولذلك لم ييخل برأى ، ولم يكف عن أى نشاط عهد به اليه ! .

وروع الحاج محمود بوفاة الرئيس المفاجئة ، وفكر عندئذ في الانسحاب من العمل السياسى والالتفات الى الوظيفة والدكان ، ولكن الامين المدرب اقنعه بأنه اذا كان الرئيس قد مات فإن التنظيم حى لا يموت ، وان على التنظيم الآن أن يحكم ويسد الفراغ الذى نشأ بوفاة القائد .

واقنع الحاج محمود بوجهة نظر الامين ، وراح يشارك من جديد في الاجتماعات ويدلى بالآراء ويسجل رأيه في المحاضر . وعندما بدأ الصراع في قمة السلطة لم يشعر الحاج محمود في أى لحظة أن ثمة صراعا يدور في القمة . فقد حجب عنه الجميع انباء الصراع . ولذلك عندما كلفه الامين بقيادة مظاهرة بعد صلاة الجمعة تطالب بالوحدة الوطنية وعودة الوزراء المستقلين ، لم يتردد لحظة ، وعندما ألقى البوليس القبض عليه طلب السماح له بالاتصال تليفونيا بالامين الذى كلفه بالمظاهرة ، لكنه فوجئ بالامين نفسه في الزنزانة نفسها التى انحسر فيها بعد قليل .

تمالك الحاج محمود نفسه وعكف على الصلاة وترديد الادعية . وحرص على أن يؤدي الفريضة في مواقيت الصلاة .

وآثر الوحدة فابتعد عن الجميع ، ولم يشغل باله التحقيق وما يجرى فيه . فهو لم يفعل شيئا سوى انه حاول قيادة مظاهرة فاشلة لم تتم . وهو حتى عندما فكر في قيادتها كان يعتقد لحظتها أنه يفعل هذا في سبيل

المصلحة العامة . ولم يكن يعلم - حقيقة - ان هناك صراعاً ما .
ولم يكن منحازاً لفريق ضد فريق فهو انحاز لمصر ووقف الى جانب
النظام ككل . ولا تربطه بأحد في السلطة علاقة على أى نحو ! ولكن
الذى شغله بالفعل ، هو كيف يصبح دخول تنظيم الحكومة عملاً ضد
الحكومة ؟ وكيف يتحول رجل النظام الى مناهض للنظام الذى هو جزء
منه .

ان التهمة التى وجهها المحقق للحاج محمود هى محاولة قلب نظام
الحكم . والحاج محمود كان يؤمن بأنه هو نفسه نظام الحكم . وظل هذا
الايان راسخاً فى قلبه حتى بعد أن دخل الزنزانه وأغلقها عليه الحارس
بالمفتاح . فقد ظن أن فى الامر خطأ ما ، وان احدهم سيفتح الزنزانه بعد
قليل ليعتذر له . والذى غاظه اكثر ان كل الذين كانوا معه لا يزالون فى
السلطة ، ولا أحد ضاع الا هو والأمين ، بل ان الامين الجديد الذى كان
زميلاً له فى التنظيم ، وربما كان اكثر منه حماساً للمظاهرة ، خطب فى الحى
مندداً بالخونة واعداء الوطن ، وكان يقصد الحاج محمود والآخرين .
كيف حدث هذا وما الذى جرى على وجه التحديد ؟ ولم يجد الحاج
محمود أجوبة على الاسئلة التى ازدحم بها رأسه . فدفن همه فى العبادة وذكر
الله . فلم يعد احد قادراً على تخليصه من ورطته الا سبحانه ! وانتهت
المحاكمة ودخل الحاج السجن ، وبدأ يتأقلم مع حياته الجديدة ، ويرضى
بها على انها قضاء الله وقدره . ومن يدرى ؟ عسى أن تكرر هوا شيئاً وهو
خير لكم . ولا بد أن عينا شريرة حسودة اصابته فى الصميم .
وما دامت الصحة جيدة والدكان والعمارة فى أحسن حال ، فكل شئ
على ما يرام ! وكان من عادة الحاج كلما استيقظ فى الصباح الباكر ، تشعلق
على باب الزنزانه ثم أذن للصلاة ، ثم يردد كلمة يارب أكثر من مرة ، ثم
يطلق صيحة رهيبة بعبارة لا يغيرها على الاطلاق « فرجه قريب ! » .

وذات صباح ، والحاج فى نزته المعتادة فى فناء السجن ، فوجئ
بالمأمور يستدعيه الى مكتبه لأمر هام ، وعندما مثل الحاج بين يدى المأمور
حدق المأمور فيه طويلاً ، ثم سأل سؤالاً جعل شعر الحاج محمود يشتعل
شيئاً ، ومفاصل عظامه تتفكك كأنما اصابها زلزال ، ولم يستطع الحاج محمود
أن ينطق بالجواب ، هل ينفى ؟ هل يعترف ؟ هل يرفض الاجابة على
السؤال ؟ .

وأخرجه من حيرته ، صوت البيه المأمور يصرخ فيه مرة أخرى
بالسؤال :

- أنت الى كل يوم تقول « فرجه قريب »؟
وامتقع وجه الحاج محمود عند سماعه لسؤال المأمور ، فمن الذى أبلغه
بهذا العمل الذى يعتبر سلوكا خاصا للحاج ؟ ثم ما هى عواقب مثل هذا
العمل ؟ وهل الابتهاال الى الله جريمة ؟ وعندما أعاد المأمور سؤاله ، سارع
الحاج بالرد ، فقد كانت لهجة المأمور جافة وجادة .
- أنا بأذكر الله يا بيه .

وقال المأمور وهو يعنف الحاج :-

- ابقى أذكر الله فى شرك .

انزوى الحاج محمود بعد ذلك فى زنزانه ، يراقب أحوال السجن
والمساجين . وتركزت كل غرائز التاجر فى الحاج ، فاكشف ان التجارة فى
السجن أربح منها فى الخارج . فهنا لا ايجار ولا ضرائب ولا مصاريف مياه
وكهرباء ، صندوق السجائر الذى يباع بربع جنيه فى الخارج يباع فى
السجن بضعف ثمنه . السجائر هى عملة السجن وهى اربح تجارة .
وللحاج محمود قيود فى مسألة السجائر ، وهو فى البداية امتنع عن شراء أى
سجائر من الكانتين أو استلام أى سجائر من الخارج ، والسبب انه
لا يدخن . ولكن ما أعظمها الآن من فرصة ، اذا اغتتمها الحاج فاز من
السجن بغنيمة لا يستطيع الحصول عليها فى الخارج !

ولم يضع الحاج محمود وقتا ، أرسل الى زوجته خطابا يوصيها بأن ترسل
له كميات كبيرة من السجائر ، وظنت المرأة الطيبة المدبرة أن فى الأمر خطأ
ما . ولذلك لم تحضر معها أى سجائر عندما جاءت لزيارته .

ولكن عندما شرح لها الحاج محمود تفاصيل مشروعه الجديد . رحبت
على الفور ، وسرعان ما تكدست زنزانه بصناديق سجائر من كل
الأنواع ، وجذب الزحام الشديد على زنزانه الحاج نظر الشاويش . ولكن
الحاج المدرب استطاع أن يملا فم الشاويش وان يسكته أيضا .

اثار الحاج محمود حسد التجار الآخرين فى السجن وكان عليه أن يدخل
سلسلة معارك طويلة ضد الذين احتكروا التجارة فى السجن منذ أمد
طويل ، ودخل الحاج محمود معركة وأخرى ، ولكنه اكتشف ان الطريق
طويل ، وانه لا محالة هالك فى النهاية ، فآثر الانسحاب من المنافسة

الدائمة ، ولكن الى عمل آخر لا يستطيع أحد أن ينافسه فيه . فقد كان السجن يستقبل كل يوم سبت عددا من المساجين كلهم شبان ، كلهم جاءوا الى السجن لارتكابهم جريمة واحدة . هي الهروب من الجندية ، ولأنهم منقولون من السجن الحربي ، فقد وصلوا الى سجن القناطر في غاية الاعياء ، وليس مع احد منهم سجاير ولا نقود ، وكانت مهمة الحاج محمود عندئذ هي مد يده الكريمة الى هؤلاء الضائعين ، بالسجاير وعلب الأطعمة المحفوظة على ان يدفع هؤلاء ما عليهم من نقود بعد ذلك . عملية فيها مخاطرة ، ولكن الحاج قام بها عن طيب خاطر ا

استأجر الحاج مسجوناً من عتاة المجرمين ، له سجل حافل في الجريمة ، وسوابق في فقا أعين الحراس ، الأمر الذي جعل ادارة السجن تغمض عينها عن نشاطه المريب داخل الأسوار . وكان سعيد - هذا اسمه - شاباً في مقتبل العمر . قصر القامة متين البنيان ، قويا كالثور ، وكان مسلحاً بخنجر له فصل حاد يخفيه في طيات ملابسه ، ورغم ان الحراس الذين تولوا تفتيشه أكثر من ألف مرة ، كانوا يعرفون موضع الخنجر في ملابسه ، إلا ان احدا منهم لم يجرؤ على ضبطه في يوم من الأيام .

وكان سعيد ينتقل طول النهار تحت سمع وبصر الادارة بين العنابر قاطعاً فناء السجن ، ليوزع السجاير وعلب الأطعمة المحفوظة في زنازة الحاج محمود الى مختلف الزنازين . ثم يعود آخر الأسبوع فيجمع الحساب من تلقوا نقوداً من ذويهم ، وكان يقنع بربع حصة له عن عمله مع الحاج ، تاركا للحاج محمود الباقي نظير رأس المال . وتعرضه للافلاس تماماً اذا تم ترحيل هؤلاء المساجين فجأة يوماً ما !

واطمأن الحاج محمود الى العملية الجديدة . فكل خطوة فيها تسير حسب الخطة الموضوعة والأرباح فاحشة ، والمستقبل زاهر ، وفترة السجن لن تضيق هدرا ، ورب العباد الكريم ، يقطع هنا ليوصل هناك . وتسليح الحاج محمود بعدة دفاتر لينظم حساباته . ولأن الورق والقلم من الممنوعات بالنسبة للمسجون السياسي ، فقد جعلها في عهدة شريكه سعيد ، وكان سعيد يحملها اليه في الصباح ، ويقضي الحاج محمود وقتاً طويلاً في اثبات الديون ، وشطب المتحصلات ، واسقاط الديون الميتة التي تم الافراج عن اصحابها ! وتم ترحيلهم من السجن .

واتسعت أعمال الحاج محمود ، فصار يشتري من السجن بضائع يسلمها .

لزوجه لتبيعها في الخارج . وكانت هذه أول سابقة في تاريخ السجون المصرية ، ولكن سيظل الفضل في اكتشافها للحاج محمود عبدالحفيظ . وأصل الحكاية أن المسجونين يتلقون من ذويهم في الخارج طرودا ، وهذه الطرود تحتوى على ملابس شتوية . وأطعمة ، وصابون ، ومعجون أسنان . ولما كان المسجون ليس في حاجة الى هذه الأشياء بقدر حاجته الى سجاثر كثيرة ، فإن أغلبهم يعرضون ما تلقوه للبيع مقابل سجاثر يدخونها ويستعملونها في رشوة الحراس وقضاء مآربهم الأخرى .

وانتهز الحاج محمود الفرصة ، وراح يشتري كل شيء ، ملابس ، معجون أسنان ، أحذية جديدة ، صابون معطر . وذات مرة تلقى مسجون من بلاد المغرب عدة صناديق سجاير من نوع فرنسي غالى الثمن ولكنه ليس ذائعا في مصر ، وأراد الرجل المغربي ان يبادل السجاير الفرنسية بسجاير مصرية ، وتقدم الحاج محمود وحل المشكلة . ولكن السجاير الفرنسية لم تلق رواجاً في دكان الحاج فأراد الغناء الصفقة ، ولكن الرجل المغربي اعتذر ، وكانت خناقة حامية ، وصلت الى مكتب المأمور . ومن خلال التحقيق السريع ، الذى أجراه المأمور مع الحاج والرجل المغربي ، استطاع ان يكشف بعض جوانب القضية الغريبة الغامضة . وربما وصل الى استنتاج لحقيقة الدور الذى يقوم به الحاج في السجن ! ولكن هذا الحادث العابر لم يجعل الحاج محمود يتوقف عن العمل ، بل ظل يزاول نشاطه كالعادة بمنتهى الهمة والنشاط ، ولكن لان الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن ، فقد بدأت المتاعب تلوح في الأفق فقد مضت عدة أسابيع والحاج محمود يثبت في دفاتره ديونا ، دون أن يكون هناك أية مدفوعات . وكان سعيد يسوق في كل مرة حججا لعدم التحصيل ، والحاج محمود ساكت لا يستطيع حراكا . فهو أولا لا يعرف أصحاب الديون ، فالعلاقة معهم مقصورة على سعيد وحده . وهو لا يستطيع أن يكذب سعيد أو يتهمه بالتحصيل ، لأن عواقب عمل مثل هذا لا يعلم بها إلا الله !

وفكر الحاج محمود ان يتوقف قليلا عن العمل ، خصوصا إن موعد الافراج عنه قد أصبح على الأبواب . وفاتح سعيد في الأمر ، ولكن سعيد اعترض بشدة ، فكيف يتوقف والارباح تنهمر على رأسيهما كالطرر . واقترح سعيد اقتراحا جهنميا لمعت له عينا الحاج محمود . لماذا لا يواصل

الحاج تجارته في السجن وهو في الخارج . ان سعيد مقطوع من شجرة ، فلا أحد يزوره ولا احد يسأل عنه حتى بخطاب . ويستطيع الحاج ان يزوره مرتين كل شهر ، وأن يحمل له البضاعة وسعيد يمارس عمله ويسلم الارباح للحاج . كما أن من حق الحاج أن يرسل طرودا لسعيد دون أن يتحمل مشقة المجيء للزيارة . انها عملية سهلة ومريحة وستحقق للحاج دخلا يعوضه عن فقد الوظيفة وعن وقف الحال في الدكان ! .

وسرح الحاج تلك الليلة في مشروع سعيد ولكن الخوف الوحيد ان يطمع سعيد في أرباح الحاج محمود فليطشها كلها ويرفض الدفع ، ولكن تجربة الحاج محمود مع سعيد تثبت العكس . فهو في غاية الأمانة وظل يدفع ما عليه بانتظام ، صحيح ان هناك متأخرات لعدة أسابيع ولكن الذنب ليس ذنبه ، بل ذنب المساجين الفلاس الذين يرفضون الدفع . على العموم هو مشروع جيد فقط لو اكتشف الحاج طريقة تضمن له حقوقه عند سعيد . هكذا همس الحاج محمود لنفسه وهو يتهيأ لصلاة العشاء في زنزانه التي حرص على اطفاء النور داخلها حتى لا يزعجه حراس الليل بطلباتهم المتكررة .

ونام الحاج محمود في تلك الليلة نوما هادئا مباركا ، وعندما استيقظ على ضجة المساجين ، كان الوقت ضحى ، والشمس تسلك الأفق . والجو رائع ، ورائحة زهر البرتقال تفوح في جو القناطر ، وتوضأ الحاج محمود وخطف ركعتين سريعتين ، وخرج ليشتري بعض الوقود ، فقد نفذت الكمية التي كانت لديه ، وكان محمود يلجأ في مثل هذه الأعمال لسعيد . وعندما عرج الحاج على زنزانه سعيد اكتشف انها مغلقة ، فادرك أن سعيد ربما في جولته المعتادة لجمع النقود المستحقة على المساجين . ولذلك راح يفتش عليه هنا وهناك دون أن يعثر له على اثر . وفجأة رأى احد أصدقاء سعيد يقطع الفناء فناده الحاج وسأله عن سعيد ، وقال الرجل وهو يحث الخطى في طريق الى حيث يريد :

- سعيد رحلوه النهاردة الصبح ، راح سحن قنا . ونزل الخبر على الحاج محمود كالصاعقة .

وانزوى الحاج محمود بعد هذا الحادث يلحق جراحه في اكتئاب شديد . لقد تحمل المحاكمة والسجن وضياع المستقبل ولكنه لم يستطع أن يتحمل ضياع تجارته في السجن ! وماذا يستطيع أن يقول لزوجته وكيف يبرر ما حدث له ؟ .

ولكن ليس الذنب في الواقع ذنب الولد سعيد ، السياسية هي السبب ! ملعون أبو السياسة وملعون أبو الذي أغراه بالعمل فيها . ما كان أغنى الحاج محمود عن العمل بالسياسة ، فهو موظف حكومة وصاحب دكان ومن ذوى الأملاك ، لو عاش وحده ولنفسه لكانت أحواله عال العال . وضربت موجة من الأسى نفس الحاج محمود عندما تذكر أيامه الخوالى . صحيح كان صاحب سلطة . وكان عسكري المأمور يضرب له تعظيم سلام إذا رآه .

فلتذهب كلها الى الجحيم ، وعليه أن يواجه حاضره الأغبر ومصريه المجهول ، وأن يحاول تعويض خسارته الباهظة قبل أن تمر الايام ، ويكون عليه بعد ذلك ان يواجه اياما عصبية بعد الافراج . وفكر الحاج في معاودة نشاطه داخل السجن ولكن بمساعدة آخر أكثر أمانة من سعيد ، ولكن من أين يجد انسانا صاحب امانة في سجن المفروض أن كل من فيه فقدوه هذه الصفة قبل الوصول اليه ! .

ولكن لماذا لا يقوم الحاج محمود بالعمل بنفسه ، ما حك جلدك مثل ظفرك ! على الأقل ستكون الارباح كلها في جيبه ، وهو يستطيع عندئذ ان يتساهل قليلا في الأسعار ، ولو فعل ذلك فسيجنى مع الريح ، الشكر والذكر الحسن ! ولماذا لا يستعين الحاج بواحد من حراس السجن ، وستوافر عندئذ الريح مع الحماية . فكرة جهنمية لم تخطر على بال احد من قبل . وراح الحاج يستعرض في ذاكرته كل الحراس الذين يعرفهم . سيف الطويل العريض الشرس ، ولا عبد الخالق التزيه صاحب المزاج ، وعبد القادر رجل معنوه ومزاجي ، أحيانا يبدو طيبا للغاية ، وودودا أيضا ، وأحيانا يتحول الى وحش كاسر ! وعم توفيق العجوز الخبير في فنون الرشوة والتهريب ، لم يبق الا الضباط . أبوبكر الشرير الذى يهوى الأذى أكثر من هوايته للنقود . وإبراهيم الطيب المزاجى المدمن على الخشيش والأفيون .

وقرر الحاج محمود ان يفتح الضابط ابراهيم فى الصباح ، وعندما وقف الحاج امام الضابط فى مكتبه الملحق بالعنبر وجد المسجون روبر فى المكتب ، فلم يفتح الموضوع واكتفى بالحديث فى موضوعات عامة لا صلة لها بالموضوع ، وأيام كثيرة مرت والحاج محمود يحاول ولكنه لا يستطيع ، وأخيرا قرر ان يتوكل على الله وأن يباشر المهمة بنفسه . فلم يبق على موعد

الافراج الاثلاثة أشهر ، ولابد أن يجنى فيها ما يستطيعه حتى يعوض ما خسرته في سالف الأيام ، ولما كانت تجارتها وفقا على الايراد الجديد من العسكر الهاربين من الخدمة ، ولما كان هؤلاء يسكنون في دور ٦ في عنبر « ب » فقد توجه الحاج الى هناك لكي يلقى نظرة على السوق قبل أن يبدأ العمل .

وراح الحاج منذ ان خرج من زنزانه يوزع السجائر ابتداء من شاويش الدور على شاويش العنبر الى عسكر البوابة الى حضرة الصول الذي يتخذ من الفناء مقرا مختارا له . وعندما وصل الى عنبر « ب » قدم السجائر لعسكري فرفض . . وتعجب الحاج فهذا أول عسكري في تاريخ السجن يرفض السجارة . ولو قالوا للحاج محمود أن الشمس تغرب في المشرق لصدق ، ولكن عسكري السجن يرفض سجارة . . هذا هو المستحيل ! وفلسف الحاج محمود الأمر لنفسه ، الحاج من رجال السياسية ، فربما العسكري يعرف ان الحاج من رجال السياسة ويعرف أيضا انه سيفرج عنه عما قريب ، والسياسة بحرها غويط ، ورجالها أحيانا في السجن ، وأحيانا في السلطة .

بعيد النظر هذا العسكري ، وهو يحسب حساب الأيام القادمة ، ولكن ما أشد دهشة الحاج محمود عندما رفض شاويش عنبر « ب » أن يأخذ منه سجارة . ورفض أيضا شاويش الدور . هذا عنبر ملائكة وليس مثل عنبر « أ » . وفكر الحاج أن يطلب النقل الى هذا العنبر ، وستكون التجارة من هنا أربح ، لأنها ستكون بلا مصروفات ، وصعد الحاج السلم ، كان العسكر السجناء يتطلعون في الدور ، ويجلسون في كسل على الأرض ، وعندما اقترب الحاج محمود من الجماعة وألقى عليهم السلام ، ردوا عليه بفتور ، ولكنه عندما أخرج علبة الدخان من جديده نهضوا في نشاط وتهافتوا عليه كالذباب . وعندما سألهم السؤال التقليدي :

- كلكم عساكر في الجيش ؟ ردوا عليه جميعا بالاجاب . واستعد الحاج محمود لبدأ الشغل معهم ، ولكن الكلمات احتبست في حلقة . فقد هجم عليه المأمور والضابط أنويكر وضابط آخر في ملابس مدنية ، لقد كان الحاج اذن تحت المراقبة . وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل العسكري والشاويش والشاويش الآخر يرفضون سجارة الحاج ، ولم يدرك الحج محمود حقيقة الأمر الا في الليل وامام النيابة . لقد كانت التهمة الموجهة له

هو الاتصال بعساكر القوات المسلحة لتكوين عصابات لمناهضة نظام الحكم . وعبثا حاول الحاج افهام السلطات انه انما كان يريد التجارة معهم والربح من ورائهم ، وهل يعقل أن يشتغل السياسى بالتجارة؟! انها مؤامرة جديدة على نظام الحكم!.

المحتويات

٧ ابو سدا ح
٢٥ اليانكى
٣٥ سيد الحليوة
٥٣ المسلكاتى
٧٣ عبدالستار السياسى ..
٨٧ عبدالحفيظ الاشتراكى

رقم الإيداع ٩٧/٤٩٥٩
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 08 - 0330 - 8

مطابع الأخبار

